مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

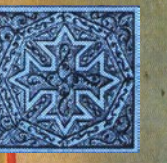

نصوص آبائية
- ٧٠ -

ثيئوفانيا
ميلاد

للقديس
غريغوريوس الناطق
بالإلهيات

كتابات الآباء التى صدرت

١.٥٥، ٥٩، ٦٣ : نصوص للآباء صدرت ونفدت .

٤٦ : رسالة اكليمندس الرومانى إلى الكورنثيين .

٥٦ : رسائل القديس كيرلس الأسكندرى إلى نسطور ويوحنا الأنطاكى (طبعة ثانية)

٥٧ : تفسير إنجيل لوقا (الجزء الخامس) . للقديس كيرلس الأسكندرى

٥٨ : السجود والعبادة بالروح والحق . المقالة الأولى . للقديس كيرلس الأسكندرى

٦٠ : آحاد الصوم المقدس (٦٠ . ٧/٦٠)

٦١ : السجود والعبادة بالروح والحق . المقالتان الثانية والثالثة . للقديس كيرلس الأسكندري

٦٢ : تجسد الكلمة (ترجمة جديدة عن اليونانية) . للقديس أثناسيوس الرسولي

٦٤ : المقالة الأولى ضد الآريوسيين (طبعة ثالثة منقحة) . للقديس أثناسيوس الرسولي

٦٦ : السجود والعبادة بالروح والحق . الجزء الثالث . المقالتان الرابعة والخامسة . للقديس كيرلس الأسكندري

٦٧ : خميس العهد . عظتان للقديس كيرلس عمود الدين

٦٨ : قيامة المسيح . للقديس كيرلس عمود الدين

٦٩ : شرح إنجيل يوحنا . الجزء الخامس . الإصحاحان التاسع والعاشر . للقديس كيرلس الأسكندرى

٧٠ : ثيئوفانيا: ميلاد المسيح للقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات

يُطلب هذا الكتاب من :

< المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية ت : ٢٤١٤٠٢٣.

< بيت التكريس ت : ٤٨٣٦٣٨٩، ٦٧٤٥٢١٩

< ومن المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم .

سعر النسخة: جنيه واحد

الثيوفانيا
ميلاد المسيح

أنشودة الميلاد[١]:

١ . وُلد المسيح فمجدوه، أتى المسيح من السموات فاستقبلوه،
أتى المسيح إلى الأرض فعظموه
" *سبحى الرب يا كل الأرض*" (مز٩٦:١)
لتفرح السموات وتبتهج الأرض بالسماوى الذي صار على الأرض.
المسيح تجسد ابتهجوا بفرح وخوف.
الخوف بسبب الخطية، والفرح بسبب الرجاء.
جاء المسيح من عذراء،
فعشن عذارى يا نساء لتصَّرن أمهات للمسيح.
مَنْ الذي لا يسجد للذي كان منذ البدء؟
مَنْ الذي لا يمجد ذاك الذي هو الآخِر؟

٢ . مرة أخرى ينقشع الظلام[٢]، مرة أخرى يُشرق النور.
مرة أخرى يحل الظلمة كعقاب على مصر[٣]،
مرة أخرى يستتير شعب الله بعمود من نار (انظر خر١٣:٢١)
الشعب الجالس في الظلمة أبصر نور معرفة الأسرار الإلهية،

[١] هذا العنوان وكل العناوين الجانبية من وضع المُترجم.

[٢] الظلمة تنقشع بولادة الرب مثلما حدث أثناء خلق العالم بخلق النور الذي جعل الظلمة التي كانت تغطى الأرض تنقشع (انظر تك١:٢ وفيما بعده).

[٣] انظر خر١٠:٢١. يقصد بمصر العالم الذي يعيش في ظلمة.

"*الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل صار جديدًا*" (٢كو٥:١٧).

الحرف يتراجع، والروح يتقدم.

الظلال تهرب بينما الحق[٤] يحل مكانها.

مثال ملكي صادق قد تحقق (مز١١٠:٤)،

الذي كان بلا أم صار الآن بلا أب.

النواميس الطبيعية انحلت. العالم السماوى ينبغى أن يكتمل[٥].

المسيح يأمر أن لا نضع أنفسنا ضده

"*هيا صفقوا بأيديكم يا كل الأمم*" (مز٤٧:١)،

لأنه وُلد لنا ولد وأُعطى لنا ابنًا،

تكون الرئاسة على كتفه (لأن كتفه رُفع بالصليب)،

ويُدعى اسمه ملاك المشورة العظيم (انظر إش٩:٥س).

دعوا يوحنا يصرخ "*أعدوا طريق الرب* " (مت٣:٣)،

وأنا سوف أتحدث عن قوة هذا اليوم:

الذي بلا جسد تجسد **الكلمة** صار له جسم

غير المنظور صار منظورًا غير الملموس صار ملموسًا

غير الزمنى صارت له بداية زمنية

ابن الله يصير ابن الإنسان

"*يسوع المسيح هو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد*"

اليهود يعثرون، واليونانيون يسخرون، والهراطقة يثرثرون.

[٤] يشير كل من "الحرف" و "الظلال" إلى "الناموس" الموسوى، بينما كل من "الروح" و "الحق" إلى الحياة الجديدة التي ظهرت في العالم بميلاد المخلّص.

[٥] العالم السماوى يكتمل بعودة الجنس البشرى إلى الموطن السماوى.

سوف يؤمنون به عندما يرونه صاعدًا إلى السماء،
وإن لم يؤمنوا وقتذاك، فسوف يرونه
آتيًا من السموات وجالسًا كديان.

هذه الأمور سوف تحدث فيما بعد.

اسمان للاحتفال: ثيئوفانيا والميلاد:

٣ . أما اليوم، فالإحتفال هو بالظهور الإلهى أى الميلاد. هذا الإحتفال الواحد يطلق عليه اسمان لأن الله ظهر للبشر بواسطة الميلاد. **الكلمة** هو كائن أبدى من الكائن الأبدى فوق كل عِلة وكلمة (لأنه لا توجد كلمة قبل اللوغوس) صار جسدًا لأجلنا لكى . كما منحنا الوجود . يعطيينا أيضًا الوجود الأفضل الذي سقطنا منه بسبب شرورنا أو بالحرى لكى يعيدنا إليه بتجسده. هكذا أطلق اسم "ثيئوفانيا" إشارة إلى هذا الظهور، وكذلك أيضًا أُطلق اسم الميلاد إشارة إلى مولده.

لماذا نحتفل بهذا العيد؟:

٤ . بالنسبة لنا هذا هو مفهوم الاحتفال، وهذا هو ما نحتفل به اليوم: نُعيد لسكنى الله بين البشر الذى يرفعنا لنسكن بجوار الله، أو بالحرى لنرجع إليه، لكى بخلعنا الإنسان العتيق، نلبس الإنسان الجديد. وكما متنا في آدم، هكذا يمكننا أن نحيا في المسيح، إذ نولد معه، ونُصلب معه ونُدفن معه لكى نقوم بقيامته. لأنه ينبغى أن نتغير التغيير الحسن الصالح. فكما أن الأمور الحسنة (الحالة الفردوسية الأولى) تبعتها الأمور التعسة (حالة السقوط)، هكذا ينبغى بالأحرى أن تأتى الأمور الحسنة من الأمور التعيسة. "*لأنه حيثما تكثر الخطية تزداد النعمة جدًا*" (رو٥:٢٠).

وإذا كان تذوق الأكل[٦] قد جلب الإدانة فكم بالأكثر تبررنا آلام المسيح. إذن فلنُعيد، ليس بطريقة الإحتفالات الوثنية الصاخبة، لكن بطريقة إلهية، ليس بطريقة العالم لكن بطريقة روحية. لا باعتباره عيدنا نحن بل باعتباره عيد ذاك الذي هو لنا (أى المسيح) أو بالأحرى عيد ربنا. نعيد ليس بما للمرض بل بما للشفاء. نُعيد ليس بما يخص الخلق، بل بما يخص إعادة الخلق.

كيف نحتفل بالعيد؟:

٥ . وكيف يصير هذا التعييد؟ لا بأن نزين الأبواب، ولا نقيم حفلات رقص، ولا نزين الشوارع ولا نبهج عيوننا، ولا نُطرب أسماعنا بموسيقى صاخبة، ولا نلذذ أنوفنا بروائح أنثوية غير لائقة، دعونا لا نفسد حاسة التذوق، ولا نسمح لحاسة اللمس أن تتلذذ بلمس أشياء غير لائقة. هذه الحواس التي يمكن أن تكون مداخل سهلة للخطية؛ لنكن غير متخنثين بلبس الملابس الناعمة والكثيرة الثمن، والتي لا نفع لها. ولا نتزين بأحجار ثمينة وبذهب لامع، وبأصباغ تشوه الجمال الطبيعى الذي خُلِقَ على صورة الله، ولا للهزء والسكر الذي يصاحبه دائمًا الفسق والدعارة (انظر رو١٣:١٣)، لأن التعاليم الشريرة تأتى من المعلّمين الأشرار، أو بكلام أفضل، لأن البذرة الشريرة تنبت نباتًا شريرًا، فلا نفترش الفرش الناعم الذي يرضى لذّات البطن والشهوات العابرة. ولا نُقبِل على شرب الخمور الممزوجة برائحة الزهور، ولا على الطعام الشهى الذي يتفنن الطهاه في طهيه. ولا نُدهن بطيب غالى الثمن. لا ندع الأرض والبحر

[٦] يشير هنا القديس غريغوريوس إلى "الأكل من الثمرة المحرمة " الذي تسبب في سقوط الأبوين الأولين (تك٣).

يقدمان نفاياتهما الثمينة كهدية . لأنى أسمى الرفاهية نفاية . دعونا لا ننافس أحدنا الآخر في إرتكاب المعاصى، فكل شئ زائد عن الحاجة الضرورية هو إفراط. بينما يوجد آخرون . من نفس طينتنا وطبيعتنا . يتضورون جوعًا، وهم في غاية العوز.

٦ . فلنترك كل هذه الأمور للوثنيين ولإحتفالات الوثنيين، الذين تسر آلهتهم برائحة شواء الذبائح، ويقدمون لها العبادة بالطعام والشراب، فهم مخترعون للشر، وكهنة وخدام للشياطين. أما نحن الذين نقدم عبادتنا "للكلمة"، إن كان يجب أن نستمتع بشئ، فلنستمتع بالكلمة، بالناموس الإلهى وبالشواهد الكتابية خاصةً تلك التي تحدثنا عن موضوعات مثل موضوع إحتفال اليوم، حتى تكون متعتنا قريبة من ذاك الذي جمعنا معًا للإحتفال به (أى المسيح) وليست بعيدة عنه. هل تريدون (لأنى أنا اليوم سوف أقدم لكم المائدة يا ضيوفى) أن أضع أمامكم رواية هذه الأحداث (الميلادية) بأكثر غزارة وأجمل كلام أستطيعه لكى تعرفوا كيف يستطيع شخص غريب[٧] أن يُغذى مواطنى البلد، وساكن الريف أن يغذى سكان المدينة، والذي لا يهتم بالمتع أن يُغذى أولئك الذين يسرون بالمتعة، ومَن هو فقير وليس له بيت ولا يملك أى شئ أن يغذى أولئك المشهورون بسبب غناهم.

افتتاحية تعليمية عن الله (الثيولوجيا):

[٧] يشير هنا إلى أنه غريب وليس من أهل القسطنطينية، وهو يلقى خطابه بعد وصوله إليها بفترة قصيرة بعد أن كان يعيش في كبادوكية البعيدة عن القسطنطينية ويخدم في مواضع صغيرة وغير مشهورة مثل نازينز التي جاء منها.

سوف أبدأ بالآتى: نقوا عقولكم وآذانكم وأفكاركم أنتم الذين تبتهجون بهذه الأشياء، لأن حديثنا سيكون حديثًا مقدسًا عن الله؛ حتى حينما تغادرون المكان تكونون قد استمتعتم حقًا بسماع تلك الأمور المبهجة التي لن تنتهى ولا تخبو.

سوف يكون الحديث ملىء تمامًا وفي نفس الوقت سيكون موجزًا، حتى لا تتضايقوا بسبب غياب بعض الحقائق، كما أنه لن يكون مملاً بسبب الإطالة الزائدة.

٧ . الله كان كائنًا دائمًا وهو كائن في الحاضر وسيكون دائمًا إلى الأبد، أو بالحرى، هو كائن دائمًا. لأن "كان" و "سيكون" هى أجزاء من الزمن ومن طبيعتنا المتغيرة. أما هو فهو "كائن" أبدى، وهذا هو الاسم الذي أعطاه لنفسه عندما ظهر لموسى "*أنا هو الكائن*" (خر ١٤:٣). لأنه يجمع ويحوى كل "الوجود"، وهو بلا بداية في الماضى، وبلا نهاية في المستقبل؛ مثل بحر عظيم لا حدود لوجوده، لا يُحد ولا يُحوى، وهو يتعالى كلية فوق أى مفهوم للزمان وللطبيعة، وبالكاد يمكن أن يُدرك فقط بالعقل ولكنه إدراك غامض جدًا وضعيف جدًا، ليس إدراك لجوهره، بل إدراك بما هو حوله[٨]، أى إدراكه من تجميع بعض ظواهر خارجية متنوعة، لتقديم صورة للحقيقة سرعان ما تفلت منا قبل أن نتمكن من الإمساك بها، إذ تختفى قبل أن نُدركها. هذه الصورة تبرق في عقولنا فقط عندما يكون العقل نقيًا كمثل البرق الذي يبرق بسرعة ويختفى. أعتقد أن هذا الإدراك يصير هكذا، لكى ننجذب إلى ما يمكن أن ندركه، (لأن غير المدرك تمامًا، يُحبط أى محاولة للإقتراب منه). ومن جهة

[٨] أى من خلال أفعاله الإلهية.

أخرى فإن غير المدرك يثير إعجابنا ودهشتنا، وهذه الدهشة تخلق فينا شوقًا أكثر، وهذا الشوق ينقينا ويطهرنا، والتنقية تجعلنا مثل الله. وعندما نصير مثله، فإنى أتجاسر أن أقول إنه يتحدث إلينا كأقرباء له باتحاده بنا، وذلك بقدر ما يعرف هو الذين هم معروفين عنده. إن الطبيعة الإلهية لا حد لها ويصعب إدراكها. وكل ما يمكن أن نفهمه عنها هو عدم محدوديتها، وحتى لو ظن الواحد منا أن الله بسبب كونه من طبيعة بسيطة لذلك فهو إما غير ممكن فهمه بالمرة أو أنه يمكن أن يُفهم فهمًا كاملاً. ودعنا نسأل أيضًا، ما هو المقصود بعبارة "من طبيعة بسيطة"؟ لأنه أمر أكيد أن هذه البساطة لا تمثل طبيعته نفسها، مثلما أن التركيب ليس هو بذاته جوهر الموجودات المركبة.

٨ . يمكن التفكير في اللانهائية من ناحيتين، أى من البداية ومن النهاية (لأن كل ما يتخطى البداية والنهاية ولا يُحصر داخلها فهو لانهائى). فعندما ينظر العقل إلى العمق العلوى، وإذ لا يكون لديه مكان يقف عليه، بل يتكئ على المظاهر الخارجية لكى يكوّن فكرة عن الله، فإنه يدعو اللانهائى الذي لا يُدنى منه باسم غير الزمنى. وعندما ينظر العقل إلى الأعماق السفلى وإلى أعماق المستقبل فإنه يدعو اللانهائى باسم غير المائت وغير الفانى. وعندما يجمع خلاصته من الإتجاهات معًا فإنه يدعو اللانهائى باسم الأبدى لأن الأبدية ليست هى الزمان ولا هى جزء من الزمان لأنها غير قابلة للقياس. فكما أن الزمان بالنسبة لنا هو ما يُقاس بشروق الشمس وغروبها هكذا تكون الأبدية بالنسبة للدائم إلى الأبد.

نكتفى الآن بهذا الحديث الفلسفى عن الله، لأن الوقت الحاضر غير

مناسب، إذ أن موضوع حديثنا الآن هو عن تدبير التجسد وليس عن طبيعة الله (ثيؤلوجيا). ولكن عندما أقول الله فأنا أعنى الآب والابن والروح القدس. لأن الألوهية لا تمتد إلى ما يزيد عن الثالوث وإلاّ كان هناك حشد من الآلهة، كما أنها لا تحد بنطاق أصغر من الثالوث حتى لا نتهم بأن مفهومنا عن الألوهية فقير جدًا وهزيل، وحتى لا ينسب إلينا أننا نتهود بالحفاظ على الوحدانية، أو أننا نسقط في الوثنية بتعدد الآلهة. إذ أن نفس الشر موجود في الاثنين اليهودية أو الوثنية، حتى إن كان موجودًا في إتجاهين متعارضين. هذا إذًا هو "قدس الأقداس"[٩] المخفى عن السيرافيم وهو الذي يُسبّح بنشيد الثلاثة تقديسات، والثلاثة يُنسب إليها لقب واحد هو الرب والإله، كما تحدث عن ذلك أحد سابقينا[١٠] بطريقة جميلة وسامية جدًا.

خلق العالم العقلى:

٩ . ولكن حيث إن حركة التأمل الذاتى لا تستطيع وحدها أن تشبع "الصلاح"[١١]، بل كان يجب أن يُسكب الصلاح وينتشر خارج ذاته، لكى يكثر الذين ينالون من إحسانه (لأن هذا كان أساسيًا للصلاح الأسمى)، لذلك فإن الله فكر أولاً في خلقة الملائكة والقوات السمائية. وفكره هذا صار عملاً تحقق بواسطة كلمته واكتمل بواسطة روحه. وكذلك أيضًا

[٩] قدس الأقداس هنا يعنى الثالوث القدوس.

[١٠] على الأغلب يشير القديس غريغوريوس إلى القديس أثناسيوس الرسولى الذي انشغل بمهارة فائقة بالتعليم عن الله في كتابه ضد الآريوسيين.

[١١] يدعو القديس غريغوريوس الله بالصلاح، وكان هذا معتادًا عند الآباء أن يستخدموا صفات الله كأسماء لله.

خُلقت المخلوقات النورانية الثانية، كخُدام للنور الأول، الذين ندركهم كأرواح عقلية أو كنار غير مادية وغير فانية، أو كطبيعة أخرى تقترب بقدر الإمكان من كل الوصف السابق. وأريد أن أقول، إنهم لم يكن في إستطاعتهم أن يتحركوا نحو الشر، بل كانوا يستطيعون أن يتحركوا فقط نحو الخير لأنهم موجودون بالقرب من الله ويحصلون على الإنارة بالإشعاعات الأولى من الله، لأن الأرضيين يحصلون على الإنارة الثانية. لكنى مضطر للتوقف عن إعتبارهم أنهم لم يكن في استطاعتهم بالمرة أن يتحركوا ناحية الشر بل أتكلم عنهم فقط على أنه كان من الصعب أن يتحركوا نحو الشر بسبب ذاك الذي بسبب بهائه سمى يوسيفوروس[١٢]، ولكنه صار ظلمة ودُعى ظلمة بسبب كبريائه، هو والقوات التي تحت رئاسته، وصاروا خالقين للشر بتمردهم على الله، وأيضًا صاروا محرضين لنا على الشر.

خلق العالم المادى:

١٠ . هكذا خُلق هذا العالم العقلى من فيض صلاح الله، بقدر ما أستطيع أن أتفكر في هذه الأمور وأتناول أمورًا عظيمة بلغتى الفقيرة. وبعد أن وجد خليقته الأولى في حالة حسنة، فكر في إبداع عالم ثانى، عالم مادى ومنظور، وهذا العالم هو منظومة مركّبة بين السماء والأرض وكل ما هو موجود بينهما، وهى خليقة جديرة بالإعجاب حينما ننظر إلى جمال كل شئ فيها، وهى أكثر جدارة بالإعجاب حينما نلاحظ التوافق والإنسجام بين المخلوقات وبعضها، إذ يتوافق الواحد مع الآخر والكل

[١٢] يوسيفوروس يعنى حامل الفجر أى النور. أول إشارة إليه كانت في سفر إشعياء ١٢:١٤، لكن ظل يُدعى شيطان Satana وهى كلمة من الفعل العبرى Satan بمعنى المقاوم.

فيما بينهم في نظام جميل لكى يُكوّنوا كمنظومة كاملة متكاملة لعالم واحد. وهذا لكى يوضح أنه يستطيع أن يحضر إلى الوجود ليس فقط طبيعة شبيهة به بل وطبيعة مختلفة تمامًا عنه. لأن الكائنات العقلية هى شبيهة بالألوهية، وتُدرك فقط بواسطة العقل؛ أما كل المخلوقات التي تُعرَف بالحواس الجسدية فهى مختلفة تمامًا عن الألوهية، وأكثر هذه المخلوقات ابتعادًا هى تلك التي بلا نفس وعديمة الحركة. لكن قد يقول أحد المندفعين، ما الذي يعنينا من كل هذا؟ وقد يتساءل أحد من المشاركين في الاحتفال من المؤمنين المتحمسين "أُنخس الحصان لكى تصل إلى الهدف"، "حدثنا عن العيد وعن الأمور التي من أجلها إجتمعنا اليوم ". هذا ما سوف أفعله. حالاً، رغم أنى قد ابتدأت بأمور عالية إضطرنى إليها حبى لها بالإضافة إلى ما يحتاجه حديثنا عن العيد.

خلق الإنسان:

١١ . إذًا، فالعقل والجسد (المادى) المتميزين الواحد عن الآخر، يظلان كل واحد ضمن حدود طبيعته، ويحملان في ذاتهما عظمة الكلمة الخالق، وهما مسبحان صامتان وشاهدان مثيران جدًا لعمله الكلى القدرة. لم يكن بعد يوجد كائن مكون من الاثنين (العقل والحس) معًا، ولا أى إتحاد من هذه الطبائع المتضادة، إنه مثال أسمى للحكمة والتنوع في خلق الطبائع، ولم يكن معروفًا بعد كل غنى الصلاح. ولأن الكلمة الخالق قرر أن يظهر غنى هذا الصلاح، ويخلق كائنًا حيًا واحدًا مكونًا من الاثنين معًا، . أى من الطبيعتين المنظورة وغير المنظورة . لذلك خلق الإنسان. ولقد خلق الجسد من المادة التي كانت موجودة، الجسد وبعد ذلك وضع فيه نفخة منه التي عُرفت بأنها نفس عاقلة وصورة لله، ثم

أقامه على الأرض كعالم ثانٍ عظيم في صغره؛ ملاك آخر، عابد مركب[١٣]. له معرفة كاملة بأعماق الخليقة المنظورة، أما الخليقة غير المنظورة فيعرفها جزئيًا فقط؛ ملك على الموجودات التي على الأرض ولكنه تحت سلطان الملك الذي في الأعالى. أرضى وسماوى، زمنى ومع ذلك غير مائت. منظور ولكنه عقلى. في وضع متوسط بين الوضاعة والعظمة. هو نفسه روح وجسد في شخص واحد. روح بسبب النعمة التي وُهبت له، وجسد لكى يسمو الإنسان بواسطته. الواحد لكى يحيا ويمجد الله المحسن إليه، والآخر لكى يتألم وبالألم يتذكر، ويتم إصلاحه إذا تكبر بسبب عظمته. كائن حى يتدرب على الأرض لكى ينتقل إلى عالم آخر، وكأن غاية السر هو أن يصير إلهًا[١٤] بميله إلى الله. فإنى أرى أن نور الحق الذي نناله هنا ولكن بقدر معين يتجه بنا لكى نرى ونختبر بهاء الله. الذي هو بهاء ذاك الذي كوننا[١٥]، والذي سوف يحلنا ثم يعيد تكويننا بطريقة أكثر مجدًا[١٦].

الحالة الفردوسية للإنسان:

١٢ . هذا الكائن (أى الإنسان) وضعه الخالق في الفردوس (أيًا كان هذا الفردوس)، وقد كرمه بهبة حرية الإرادة، لكى يكون تمتعه بالله عن اختيار حر، بفضل عطية الله الذي غرس فيه هذه الحرية، ولكى يفلّح

[١٣] أى من المادة والروح.

[١٤] طبعًا لا يقصد القديس غريغوريوس أن الإنسان يصير إلهًا مثل الله: يوجد في كل مكان وقادر على كل شئ، وأبدى ... الخ، لكن يشير هنا إلى اكتساب الفضائل الإلهية.

[١٥] أى من المادة والروح.

[١٦] يشير القديس غريغوريوس إلى الخلق بواسطة إتحاد الجسد والنفس، والموت هو إنحلال هذا الإتحاد ثم يأتى بعد ذلك إعادة هذا الإتحاد في الدهر الآتى بأكثر مجدًا.

النباتات الخالدة التي تعنى المفاهيم الإلهية، الأكثر بساطة والأكثر كمالاً معًا، عاريًا في بساطته وحياته غير المصطنعة، وبدون أى غطاء أو ستار، لأنه كان من الملائم لذاك الذي في البداية (أى الإنسان الأول) أن يكون هكذا. وأيضًا أعطاه ناموسًا ليظهر به حرية اختياره. هذا الناموس كان وصية من جهة النباتات التي يمكن أن يأكلها، والنبات الذي يجب أن لا يلمسه. هذا النبات الأخير كان شجرة المعرفة، وذلك ليس بسبب أنها كانت شريرة حينما غُرست في البداية، ولا حُرمت على الإنسان عن حسدٍ (من ناحية الله، ولا ندع ألسنة أعداء الله تتحدث هكذا، كما لا نقلد الحية!).

السقوط:

وهذه الشجرة كانت يمكن أن تكون صالحة لو أن الإنسان أكل منها في الوقت المناسب (لأن الشجرة، بحسب رؤيتى، كانت هى رؤية الله التي هى مأمونة فقط بالنسبة لأولئك الذين تكملوا بالتمرن والنسك للإقتراب منها بدون مخاطرة)، لكنها ليست صالحة للذين لم يتدربوا بعد وللشرهين من جهة الشهوة، وذلك كالطعام القوى الذي ليس له فائدة للذين مازالوا ضعفاء ويحتاجون إلى اللبن (انظر عب١٢:٥). لكن بسبب حسد إبليس وإغوائه للمرأة التي استسلمت لكونها أكثر ضعفًا، وبدورها حرضت آدم لأنها كانت ذات تأثير عليه، وأسفاه على ضعفى! (لأن ضعف أبى الأول هو ضعفى)، إذ نسى الوصية التي أُعطيت له، واستسلم للأكل من الثمرة المهلكة، وهكذا طُرد في الحال من الفردوس ومن شجرة الحياة ومن حضرة الله بسبب خطيته، ولبس الأقمصة الجلدية ربما يعنى أنه

لبس الجسد الأكثر غلاظة، والقابل للموت والمناقض للأول)[١٧].

وكأول نتيجة، شعرا بالخزى وإختفيا من وجه الله. وهنا حصل الإنسان الأول على ربح له وهو الموت، وقطع الخطية، حتى لا يصير الشر خالدًا، وهكذا فإن العقاب تحول إلى رحمة[١٨]، لأنى أعتقد أن الله يفرض العقاب بدافع الرحمة.

تدبير الله للخلاص:

١٣ . وبعد أن عاقب الله الإنسان أولاً . بطرق كثيرة، لأن خطاياه كانت كثيرة (من التي نبتت من جذر الشر، والتي نشأت من أسباب مختلفة وفي أزمنة متفرقة)، أدبه بالكلمة، والناموس، والأنبياء، والإحسانات، والتهديدات، والفيضانات والنيران، والحروب، والانتصارات، والهزائم، والعلامات في السماء، وعلامات في الهواء وفي الأرض وفي البحر، وبتغييرات مفاجئة للأمم والمدن والشعوب . كل هذه الأمور كانت تهدف لإبادة الشر . وأخيرًا إحتاج الإنسان لدواء أكثر قوة لأن أمراضه كانت تزداد سوءً: مثل قتل الأخ والزنى والقسم الكاذب، والجرائم الشاذة، وأول وآخر كل الشرور أى عبادة الأصنام وتحويل العبادة إلى المخلوقات بدلاً من الخالق (انظر رو١:١٨-٣٢). وبما أن هذه كانت تحتاج إلى معونة أكبر، لذلك حصلت على مَن هو أعظم. ذلك هو كلمة الله ذاته . **الأبدى الذي هو قبل كل الدهور، وهو غير المنظور، غير المفحوص وغير الجسدى، البدء الذي من البدء، النور الذي من النور، مصدر الحياة والخلود، صورة الجمال الأصلى الأول، الختم الذي لا**

[١٧] هنا يشرح القديس غريغوريوس مفهوم الأقمصة الجلدية.

[١٨] هنا نتذكر قول القداس الغريغورى: " حوّلت لى العقوبة خلاصًا ".

يزول، الصورة التي لا تتغير، كلمة الآب وإعلانه[١٩]، هذا أتى إلى صورته[٢٠]، وأخذ جسدًا لأجل جسدنا، ووحد ذاته بنفس عاقلة لأجل نفسى لكى يطّهر الشبه بواسطة شبهه، وصار إنسانًا مثلنا في كل شئ ماعدا الخطية إذ وُلد من العذراء التي طُهّرت أولاً نفسًا وجسدًا، بالروح القدس (لأنه كان يجب أن تُكرم ولادة البنين وأيضًا أن تنال العذراوية كرامة أعظم)، وهكذا حتى بعد أن اتخذ جسدًا ظل إلهًا، إذ هو شخص واحد من الاثنين، يأله من اتحاد عجيب، **الكائن بذاته يأتى إلى الوجود، غير المخلوق يُخلق**[٢١]، **غير المحوى يُحوى بواسطة نفس عاقلة** تتوسط بين الألوهة والجسد المادى. **ذاك الذي يمنح الغنى يصير فقيرًا، فقد أخذ على نفسه فقر جسدى، لكى آخذ غنى ألوهيته. ذاك الذي هو ملئ يخلى نفسه، لأنه أخلى نفسه من مجده لفترة قصيرة، ليكون لى نصيب في ملئه. أى صلاح هذا؟! وأى سر يحيط بى؟! إشتركت في الصورة؛ ولم أصنها، فاشترك في جسدى لكى يخلّص الصورة ولكى يجعل الجسد عديم الموت.** هو يدخل في شركة ثانية معى أعجب كثيرًا من الأولى، وبقدر ما أعطى حينئذ الطبيعة الأفضل، فهو الآن يشترك في الأسوأ[٢٢]. هذا العمل الأخير (التجسد) يليق بالله أكثر من الأول (الخلق)، وهو سامى

[١٩] انظر القداس الغريغورى الذي يخاطب المسيح الكلمة بقوله "الذي لا ينطق به، غير المرئى، غير المحوى، غير المبتدئ، الأبدى، غير الزمنى، الذي لا يُحد، غير المفحوص، غير المستحيل (أى غير المتغير)". وهذا يوضح أن القداس هو من وضع القديس غريغوريوس نفسه الذي تفوه بهذه العظة وغيرها من الخطب والعظات المعروفة باسمه.

[٢٠] أى إلى الإنسان الذي خلق على صورته.

[٢١] بناسوت خلقه هو فى أحشاء العذراء.

[٢٢] فى الخلق خلق الله الإنسان "على صورة الله"، بينما في التجسد أخذ الجسد: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

جدًا في نظر الفاهمين.

اتضع لأجلك فلا تحتقر تواضعه:

١٤ . ما الذي سوف يقوله المعترضون والمجدفون على الألوهية، أولئك المشتكون ضد كل الأمور الجديرة بالمديح، أولئك الذين يجعلون النور مظلمًا، والذين لم يتهذبوا بالحكمة، أولئك الذين مات المسيح لأجلهم باطلاً، أولئك المخلوقات غير الشاكرة الذين هم من صنع الشرير؟ هل تحوّل هذا الإحسان إلى شكوى ضد الله؟ هل تنظر إليه على أنه صغير بسبب أنه اتضع لأجلك؟ وهل تعتبره صغيرًا لأنه هو الراعى الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف (يو١٠:١١)، والذي أتى ليطلب الخروف الذي ضلّ فوق التلال والجبال والتي كانت تقدم فيها ذبائح لآلهة غريبة، وعندما وجده، حمله على منكبيه . اللتين حمل عليهما خشبة الصليب، وأعاده إلى الحياة الأسمى، وعندما أعاده حسبه مع أولئك الذين لم يضلوا أبدًا؟ هل تحتقره لأنه أضاء سراجًا الذي هو جسده، وكنس البيت، مطهرًا العالم من الخطية، وفتش عن الدرهم، أى الصورة الملكية التي دُفنت وغطتها الشهوات. وجمّع الملائكة أصدقاءه؛ عندما وجد الدرهم جعلهم شركاء في فرحه والذين جعلهم أيضًا مشاركين في سر التجسد؟ فبعد سراج السابق الذي أعّد الطريق، يأتى النور الذي يفوقه في البريق، وبعد "الصوت" أتى "الكلمة" وبعد صديق العريس جاء العريس، صديق العريس الذي أعد الطريق للرب شعبًا مختارًا، مطهرًا إياهم بالماء ليجهزهم للروح القدس؟ هل تلوم الله على كل هذا؟ هل على هذا الأساس تعتبره وضيعًا لأنه شد الحزام على وسطه وغسل أرجل تلاميذه (يو١٣:٤)، وأظهر أن التواضع هو أفضل طريق للرفعة؟ لقد

اتضع لأجل النفس التي إنحنت إلى الحضيض لكى يرفعها معه، تلك النفس التي كانت تترنح لتسقط تحت ثقل الخطية؟ كيف لا تتهمه أيضًا بجرم الأكل مع العشارين وعلى موائد العشارين (انظر لو٥:٢٧)، وأنه يتخذ تلاميذًا من العشارين، لكى يربح... وماذا يربح؟ خلاص الخطاة. وإن كان الأمر هكذا، فيجب أن نلوم الطبيب بسبب أنه ينحنى على الجروح ويحتمل الرائحة النتنة لكى يعطى الصحة للمرضى، أو هل نلوم ذاك الذي من رحمته ينحنى لكى ينقذ حيوانًا سقط في حفرة كما يقول الناموس (انظر تث٢٢:٤٠، لو١٤:٥).

١٥ . المسيح أُرسل، لكنه أُرسل كإنسان لأنه من طبيعة مزدوجة[٢٣]. لأنه شعر بالتعب وجاع وعطش وتألم وبكى حسب طبيعة كائن له جسد. وإذا استعمل تعبير "أُرسل" عنه، فمعناه أن مسرة الآب الصالحة يجب أن تعتبر إرسالاً، فهو يرجع كل ما يختص بنفسه إلى هذه الإرسالية، وذلك لكى يكرم المبدأ الأزلى وأيضًا لأنه لا ينبغى أن يُنظر إليه على أنه مضاد لله. فقد كتب عنه أنه سُلم بخيانة وأيضًا سلّم ذاته، وأيضًا كتب عنه أنه أُقيم بواسطة الآب وأنه أُصعد، ومن جهة أخرى أنه أيضًا أقام ذاته وصعد. فما ذكر أولاً في كل عبارة فهو من إرادة الآب (أنه سُلِّم وأنه أُقيم)، أما الجزء الثانى من كل عبارة فيشير إلى قوته هو. فهل تفكر في الأمور الأولى التي تجعله يبدو وضيعًا، أما الثانية التي ترّفعه فأنت تتغافل عنها. وتضع في حسابك أنه تألم، ولا تحسب أن هذا الألم تم بإرادته. انظر فحتى الآن لا يزال الكلمة يتألم. فالبعض يكرمونه كإله ولكن يخلطون بينه وبين الآب، والبعض الآخر يحقرونه كمجرد

[٢٣] طبعًا من جهة طبيعته التي فيها اللاهوت متحد بالناسوت.

جسد ويفصلونه عن اللاهوت. فعلى مَن يصب جام[٢٤] غضبه بالأكثر؟ أو بالأحرى مَن هم الذين يغفر لهم؟ هل الذين يخلطونه بطريقة جارحة أم أولئك الذين يقسمونه؟ فالأولون كان يجب أن يميزوا (بين الأقانيم) والآخرون كان يجب أن يوحدوه[٢٥] (مع الآب). الأولون من جهة عدد الأقانيم والآخرون من جهة الألوهية. هل تتعثر من جسده؟ هذا ما فعله اليهود. ربما تريد أن تدعوه سامريًا؟ ولن أذكر ما قالوه عن المسيح بعد ذلك (انظر يو٨:٤٨) هل تنكر ألوهيته؟ هذا لم يفعله حتى الشياطين. للأسف كم أنت أقل إيمانًا من الشياطين! وأكثر جهلاً من اليهود! فهؤلاء اليهود قد فهموا أن اسم ابن يدل على أنه مساوى في الرتبة (أى مساوى لله)، أما أولئك الشياطين فعرفوا أن الذي طردهم هو إله، لأنهم إقتنعوا بذلك بسبب ما حدث لهم. أما أنت فلا تعترف بالمساواة ولا تقر بلاهوته. كان من الأفضل أن تكون إما يهوديًا أو شيطانًا (لو عبّرت عن ذلك بطريقة مضحكة)، عن أن يتسلط على ذهنك الشر والكفر وأنت أغلف وبصحة جيدة.

كل هذا لأجلى:

١٦ . بعد قليل سوف ترى يسوع ينزل ليتطهر في الأردن (مت٣:١٧) لأجل تطهيرى أنا، أو بالحرى ليقدس المياه بطهارته (لأنه لم يكن في إحتياج إلى التطهير ذاك الذي يرفع خطية العالم). وإنشقت السماوات، وشهد له الروح الذي من نفس الطبيعة الواحدة معه؛ وسنراه

[٢٤] يقصد أصحاب بدعة سابيليوس الذي قال إن الآب هو نفسه صار المسيح وصلب وبعد صعود المسيح جاء باسم الروح القدس أى الثالوث أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم للاهوت واحد.

[٢٥] يقصد الآريوسيين.

يُجرب وينتصر على التجارب ويُخدم من الملائكة (انظر مت ٤:١١.١)، ويشفى كل مرض وكل ضعف (مت٤:٢٣)، ويمنح الحياة للأموات (وليته يهبك الحياة أنت الذي مت بسبب هرطقتك)، ويطرد الشياطين (مت٩:٣٣) أحيانًا بنفسه وأحيانًا أخرى بواسطة تلاميذه. ويُطعم بخبزات قليلة آلاف من البشر (مت١٤:١٤)، ويمشى على البحر كأرض جافة (مت١٤:٢٥)، ويُسلّم ويُصلب صالبًا خطيتى معه، وقُدم ذبيحة كحمل، وأيضًا قدم ذاته ككاهن يقدم ذبيحة، ودُفن كإنسان وقام ثانية كإله، ثم صعد إلى السموات لكى يعود ثانية في مجده. كم من الأعياد توجد لأجلى في كل سر من أسرار المسيح! وغاية كل هذه الأسرار تجديدى وتكميلى أنا لكى أرجع إلى حالة آدم الأولى.

١٧ . إذًا، أرجوكم إقبلوا حمله في داخلكم (كما حملته العذراء في بطنها)، وإقفزوا فرحًا أمامه إن لم يكن مثل يوحنا المعمدان وهو في بطن أمه (لو١:١)، فعلى الأقل مثل داود أمام تابوت العهد (٢صم ٦:١٤). وعليك أن تحترم الإكتتاب الذي بسببه كُتبت أنت في السموات. واسجد للميلاد (لو٢:١.٥) الذي بواسطته فُككت من ولادتك الجسدية. واكرم بيت لحم الصغرى التي أرجعتك مرة أخرى إلى الفردوس. واسجد لطفل المزود الذي به تغذيت باللوغوس (الكلمة) بعدما كنت ضالاً. اعرف قانيك كما يعرف الثور قانيه، والحمار معلف صاحبه، حسب قول إشعياء (١:٣)، ذلك إن كنت من الطاهرين الذين يكرمون الناموس وينشغلون بترديد أقواله باجترار، واللائقين للذبائح. أما إن كنت من أولئك الذين لا يزالون نجسين ولم يكن يحق لهم أن يأكلوا من المقدسات، وغير لائقين لتقديم الذبائح، وهم من الأمم الوثنيين، فإسرع

مع النجم وقدم هدايا مع المجوس ذهبًا ولبانًا ومرًا كما لملك وإله ولواحد قد مات لأجلك. مجّده مع الرعاة، وسبحه مع خورس الملائكة، ورتل تسابيحك مع رؤساء الملائكة. فليكن هذا الإحتفال مشتركًا بين القوات السماوية والقوات الأرضية. لأننى أؤمن أن الأجناد السماوية يشتركون في التمجيد معنا، ويحتفلون بالعيد العظيم معنا اليوم، لأنهم يحبون البشر ويحبون الله، كما كتب داود عن أمثال هؤلاء الذين صعدوا مع المسيح بعد آلامه لكى يستقبلوه وهم ينادون أحدهم الآخر ان يرفعوا الأبواب الدهرية (مز ٢٤: ٧.٩).

بيت لحم والصليب والقيامة:

١٨ . هناك أمر واحد فقط مرتبط بمناسبة ميلاد المسيح، أريدكم أن تبغضوه، ألا وهو قتل الأطفال على يد هيرودس، أو بالحرى يجب أن تكرموا أيضًا، هؤلاء الذين ذُبحوا وهم من نفس عمر المسيح، هؤلاء صاروا ذبيحة قُدمت قبل الذبيحة الجديدة (أى الصليب).

كن ملازمًا للمسيح:

عندما يهرب إلى مصر اهرب أنت معه؛ ورافقه فرحًا في المنفى. إنه عمل عظيم أن تشترك مع المسيح المضطهد. وإن أبطأ كثيرًا في مصر فادعوه من هناك بتقديم عبادة خاشعة له هناك. إتبع المسيح بلا لوم في كل مراحل حياته وكل صفاته. تطهر واختتن؛ إنزع البرقع الذي كان يغطيك منذ ولادتك. بعد ذلك علّم في الهيكل واطرد التجار من هيكل الله، اسمح لهم أن يرجموك لو لزم الأمر، فإنى أعرف جيدًا أنك سوف تفلت من بين هؤلاء الذين يرجموك مثل الله (انظر يو ٨: ٥٩). لأن الكلمة لا يُرجم. إن جاءوا بك إلى هيرودس لا تعطيه إجابة عن أغلب

أسئلته؛ فسوف يحترم صمتك أكثر من احترامه لأحاديث الشعب الكثيرة. إذا جلدوك اطلب منهم أن يتمموا كل الجلدات. ذُق المر واشرب الخل؛ واطلب أن يبصقوا على وجهك؛ اقبل منهم اللطمات والشتائم، وتوج رأسك بإكليل الشوك، أى بأشواك حياة التقوى. إلبس ثوب الأرجوان وأمسك القصبة في يدك، واقبل السجود بسخرية من أولئك الذين يسخرون من الحق؛ أخيرًا فلتُصلب مع المسيح واشترك في موته ودفنه بفرح لكى تقوم معه وتتمجد معه وتملك معه. انظر إلى الله العظيم الذي يُسجد له ويمجد في ثالوث، ودعه ينظر إليك وليته يظهر الآن بوضوح أمامك، بقدر ما تسمح قيود الجسد، بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد من الآن وإلى الأبد آمين.

المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية
بالقاهرة
نصوص آبائية ـ ٧٠

ثيؤفانيا
ميلاد المسيح
للقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (النازينزى)
مع سيرة حياته

ترجم العظة وأعد المقدمة
دكتور جورج عوض إبراهيم دكتور نصحى عبد الشهيد

يناير ٢٠٠٤

تُرجمت هذه العظة عن النص اليونانى فى مجموعة آباء الكنيسة
ΕΠΕ, Vol. V, Orat. 38, p. 36-71, Tessaloniki, Greece 1977.
وعن الترجمة الإنجليزية بالمجلد رقم ٧ من المجموعة الثانية من سلسلة آباء نيقية وما بعدها
Nicene & Post Nicene Fathers, 2nd Series, Vol. 7, Orat. 38, p. 345-351.

اسم الكتاب : **ثيئوفانيا ـ ميلاد المسيح**

اسم المؤلف : **القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات**

المترجمان : **د. جورج عوض إبراهيم ـ د. نصحى عبد الشهيد**

إعداد المقدمة : **د. جورج عوض إبراهيم ـ د. نصحى عبد الشهيد**

اسم الناشر : مؤسسة القديس أنطونيوس . المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية بالقاهرة : ٨ (ب) ش إسماعيل الفلكى محطة المحكمة مصر الجديدة ت: ٢٤١٤٠٢٣

E-mail: santonio@link.net

اسم المطبعة : دار يوسف كمال للطباعة

٢ش المدارس حدائق القبة ٤٨٢٧٠٧٤ – ٤٨٦٥٣٧٨

رقم الإيداع :

الترقيم الدولى :

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

يحدثنا القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات فى هذه العظة: "ثيئوفانيا" . "الميلاد"، التى ألقاها فى القسطنطينية سنة ٣٧٩م عن اسمين للاحتفال بالتجسد. الاسم الأول: "ثيئوفانيا" باليونانية ومعناها "ظهور الله" لأن المسيح هو الله الذى ظهر فى الجسد. والثانى "الميلاد" بسبب ميلاد المسيح من العذراء بالجسد. فحتى ذلك الوقت كانت الكنيسة الشرقية تحتفل بميلاد المسيح معتبرة إياه أنه الظهور الإلهى "ثيئوفانيا" وهو الاسم الذى صار فيما بعد يُطلق على عيد عماد المسيح أى الظهور الإلهى.

ونقدم الآن سيرة حياة القديس غريغوريوس قبل نص عظته.

حياة القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (النازينزى ٣٣٠ - ٣٩٠م)

مقدمة

القديس غريغوريوس هو أحد آباء الكنيسة الكبار، معلمو العقيدة الذين تعتمدهم الكنيسة الأرثوذكسية فى كل العالم كشهود أمناء للإيمان المستقيم.

وتظهر قيمة القديس غريغوريوس فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من أمرين أساسيين على الأقل. الأمر الأول: أن القديس غريغوريوس هو صاحب القداس الغريغورى المعروف باسمه فى الكنيسة القبطية، والذى يجد فى نفوس المُصلين محبة خاصة لأنه يُناجى المسيح ابن الله الوحيد مناجاة طويلة فى قداسه تأسر قلوبهم وترتفع بهم إلى مشاركة السمائيين. والأمر الثانى: أن القديس غريغوريوس هو أحد الآباء القليلين الذين تأخذ الكنيسة فى تحليل الخدام منهم الحِل، مع الرسل القديسين والقديس مارمرقس. والقديس غريغوريوس هو الوحيد الذى أطلقت عليه الكنيسة الأرثوذكسية لقب "الناطق بالإلهيات" بعد القديس يوحنا الإنجيلى

الرسول، وذلك بسبب عظاته وخطبه اللاهوتية الشهيرة عن ألوهية المسيح وعن الثالوث القدوس، التى ألقاها فى القسطنطينية فى السنوات القليلة التى قضاها هناك. وهو أحد ثلاثى آباء كبادوكية بآسيا الصغرى مع القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية والقديس غريغوريوس أسقف نيصص. وقد حمل معهما شعلة إيمان مجمع نيقية ومواصلة الدفاع عنها بعد نياحة القديس أثناسيوس.

نشأته ودراسته:

وُلد القديس غريغوريوس حوالى سنة ٣٣٠ فى بلدة نازينز بمقاطعة كبادوكية بآسيا الصغرى التى كان والده غريغوريوس أسقفًا لها. وكانت أمه "نونة" امرأة مسيحية حقيقية من أنبل النساء المسيحيات فى القرون الأولى للمسيحية. كان لـ"نونة" تأثير قوى جدًا فى نشأة غريغوريوس على الإيمان ومحبة الله ومحبة القداسة. هذه المرأة استطاعت بصلواتها وقداستها أن تحوّل زوجها غريغوريوس الأب من اعتناقه لبدعة خارج الكنيسة إلى الإيمان المستقيم. هذه الأم القديسة كرّست ابنها وهو فى بطنها لخدمة الله. ويقول عنها القديس غريغوريوس ابنها " كانت زوجة بحسب فكر سليمان، خاضعة لزوجها بحسب ناموس الزواج. وفى نفس الوقت كانت معلّمة لزوجها وقائدة له إلى الإيمان الحقيقى... فعندما تنشغل بالله وعبادته، كانت تبدو كانها لا تعرف شيئًا بالمرة عن أى مهام أرضية أو منزلية. وعندما تكون عاملة فى بيتها كانت تبدو كأنها لا تعرف شيئًا عن الممارسات الدينية: كانت كاملة فى كل شئ. لقد غرست الاختبارات فى قلبها ثقة لا حدود لها فى فاعلية الصلاة المؤمنة؛ وبالصلاة انتصرت على أحزانها وأحزان الآخرين، بالشكر لله"[1]. وقال عنها ابنها غريغوريوس فى أحد أشعاره: " ولولوا أيها الأموات، أيها الجنس المائت؛ ولكن حينما يموت شخص مثل "نونة"

[1] Philip Schaff, History of the Christian Church, Vol. III, p. 910, 911.

وهى تصلى فأنا لا أبكى"[٢].

ومنذ نعومة أظافره ربته أمه بتعاليم الكتاب المقدس وتسابيح الكنيسة وصلواتها. درس أولاً فى نازينزا، وعندما بدأ يشب قرر بتشجيع أمه وبتأثير حلم رآه أن يكرّس حياته متبتلاً للمسيح. ثم أكمل تعليمه فى قيصرية كبادوكية حيث تعرّف هناك على باسيليوس فى صباهما. ثم ذهب إلى قيصرية فلسطين ومنها إلى الأسكندرية حيث كان القديس أثناسيوس أسقفًا دون أن تتاح له فرصة لقائه. لم يمكث غريغوريوس كثيرًا هناك بل سافر بحرًا قاصدًا أثينا ليكمل درساته. أثناء سفره حاصرت السفينة عاصفة رهيبة وكاد ركابها بمن فيهم غريغوريوس يغرقون. ولأن غريغوريوس لم يكن قد اعتمد بعد، فقد انزعج بشدة خوفًا من الموت بدون معمودية، وفى صلاة حارة جدد عهد تكريسه ناذرًا نفسه من جديد لخدمة الله إذا أعطاه الله الفرصة للنجاة من الغرق. وفى أثينا توثقت علاقته بباسيليوس الذى كان يدرس أيضًا هناك. ووصف غريغوريوس عمق المحبة والصداقة التى جمعت بينه وبين باسيليوس بقوله كنا روحًا واحدة فى جسدين. ورغم محاولة كثيرين إقناعه بالإقامة الدائمة معهم فى أثينا ليعمل مدرسًا للبلاغة، فإنها غادرها وهو فى الثلاثين من عمره تقريبًا ورجع إلى نازينز، حيث كان لا يزال والده غريغويورس أسقفًا. وبعد عودته نال سر المعمودية وله من العمر ثلاثون سنة تقريبًا.

غريغوريوس الناسك:

بعد ذلك ألقى غريغوريوس نفسه بكل قواه ليحيا الحياة النُسكية بأشد صرامة، ولكنه فى نفس الوقت استمر يعيش فى نازينز ممارسًا الحياة النُسكية فى المدينة ومساعدًا لوالده فى أعمال الأسقفية. ولشدة شوقه لحياة التأمل والخلوة لم يبق فى المدينة كثيرًا، بل انطلق إلى جبال البنطس حيث قضى فترة فى العبادة والتأمل

[٢] المرجع السابق.

مع صديقه باسيليوس. وهناك تفرغا تمامًا لدراسة الكتب المقدسة والصلوات والتسابيح. وفى دراستهما للكتاب المقدس كان المبدأ الأساسى عندهما أن يفسرا الكتب المقدسة ليس حسب آراءهما الشخصية بل على أساس الخطوط التى وضعها الآباء والمعلمون السابقون عليهما فى التفسير. وقرأ كلاهما تفاسير أوريجينوس للكتاب وانتفعا بها مع تحاشى أى أفكار قد تكون غريبة عن المألوف. ومن تفسيرات أوريجينوس للكتاب والاقتباسات التى أخذاها منها وضعا الناسكان الصديقان غريغوريوس وباسيليوس كتابًا مكونًا من سبعة وعشرين جزءً أعطوه اسم "فيلوكاليا" Philocalia أى "محبة الصلاح". وهذا الكتاب لا يزال موجودًا إلى الآن بلغات عديدة بالإضافة إلى الأصل اليونانى. وقال عنه القديس غريغوريوس فى إهدائه الكتاب لأحد أصدقائه أن الكتاب قُصد به ليكون عونًا للدارسين فى تأملاتهم الروحية.

ولكن غريغوريوس لم يبق لفترة طويلة فى المرة الأولى التى ذهب فيها للخلوة مع باسيليوس، فبعد حوالى ثلاث سنوات عاد إلى نازينز، ربما بسبب مشاكل فى إيبارشية والده استدعت رجوعه.

غريغوريوس الكاهن:

بعد عودته وبقاءه لبعض الوقت يعاون والده الأسقف فى خدمة الإيبارشية الذى كان قد بلغ حوالى تسعون عامًا، وبإلحاح من شعب نازينز قام والده الأسقف بسيامته كاهنًا رغمًا عنه فى احتفال كبير فى عيد الميلاد عام ٣٦١م. ولم يكن غريغوريوس مستريحًا أو راضيًا بالمرة عن السيامة، إذ قال عن الطريقة القهرية التى تمت بها، بعد سنوات طويلة، إنها "عمل استبدادى" وأنه يلتمس الغفران من الروح القدس عن قوله هذا (انظر Carm, de vita, I, 345).

وبعد سيامته مباشرة هرب إلى بنطس ليستأنف الحياة التأملية مع صديقه باسيليوس ولكنه لم يبق هناك سوى ثلاثة أشهر تقريبًا عاد بعدها إلى نازينز

لشعوره باحتياج والديه المسنين واحتياجات كنيسة نازينز. وألقى عظة عيد الفصح فى كنيسة نازينز فى عام ٣٦٢م، وفى هذه العظة دافع عن هروبه قائلاً إنه من النافع أن يخاف الإنسان فى البداية من دعوة الله العظيمة كما فعل موسى وإرميا، كما أن استجابة الإنسان لصوت الله حينما يدعوه مثلما حدث مع هارون وإشعياء لها فائدة، وفى الحالتين ينبغى أن يكون الهروب أو الموافقة بروح خاشعة: بسبب ضعف الإنسان فى حالة الهروب أو بسبب اعتماده على قوة الله فى حالة قبول الدعوة. وانتهز غريغوريوس الفرصة ليكتب رسالة طويلة عن هروبه يوضح فيها باستفاضة فهمه لطبيعة ومسئوليات الخدمة الكهنوتية وأسباب هروبه بعد السيامة ورجوعه السريع، صارت مرجعًا لكل الآباء الذين كتبوا عن الكهنوت بعده.

وعندما صار يوليانوس إمبراطورًا سنة ٣٦١، حاول عن طريق حاكم المنطقة أن يرسل فرقة مسلحة للاستيلاء على كنيسة نازينز. ولكن الأسقف المُسن بمساعدة ابنه غريغوريوس وشعب الكنيسة رفضوا بجرأة تنفيذ أوامر الإمبراطور، ولما شعر الوالى بوجود مقاومة شديدة أُضطر لسحب القوة المُسلحة. ولم تتكرر هذه المحاولة من الدولة بعد ذلك. وكان لموقف غريغوريوس الأب وغريغوريوس الابن فى مقاومة يوليانوس الجاحد دفاعًا عن الإيمان المستقيم دور كبير لتحويل نظر الإمبراطور عن مهاجمة الإيمان وممتلكات الكنيسة فى مقاطعة كبادوكية كلها. وبعد أن تولى الإمبراطور فالنس الآريوسى عرش الإمبراطورية كان يوسابيوس أسقف قيصرية هو رئيس أساقفة كبادوكية؛ فأرسل إلى غريغوريوس يدعوه إلى قيصرية لمساعدته فى مقاومة الآريوسية فاعتذر غريغوريوس لأنه كان يعلم بوجود خلاف بين المطران يوسابيوس والكاهن باسيليوس. وكتب غريغوريوس خطابات إلى يوسابيوس وباسيليوس واستطاع أن يصالح بينهما سنة ٣٦٥م، فذهب باسيليوس إلى قيصرية لمساعدة يوسابيوس.

غريغوريوس الأسقف:

بسبب وجود صراع بين أنثيموس أسقف "تايانا" الذى اعطاه الإمبراطور فالنس فرصة أن يسيطر على مقاطعة كبادوكية كلها بجعل تايانا مقر رئاسة الأساقفة بدلاً من قيصرية . فلكى يقوّى القديس باسيليوس الذى كان أسقفًا لقيصرية مركزه فى مواجهة الخطة الإمبراطورية قام بإقامة أسقفيات عديدة فى المنطقة المتنازع عليها بينه وبين أنثيموس. ومن بين هذه الأسقفيات "سازيما"، قرية فقيرة وصغيرة جدًا وجميع سكانها من الأجانب واللصوص، قام بسيامة صديقه غريغوريوس أسقفًا لها بعد ضغط شديد من باسيليوس ووالد غريغوريوس المُسن سنة ٣٧٢م. ولكنه لم يذهب لاستلام هذه الإيبارشية تحاشيًا للصدام واستعمال العنف مع الأسقف أنثيموس. وتسبب هذا الموقف مع باسيليوس فى تأزم العلاقات بينهما لدرجة كادت تؤثر على الصداقة العميقة التى كانت تجمعهما.

عاد غريغوريوس إلى خلوته مفضلاً حياة الهدوء والتأمل. وبعد ذلك استجاب غريغوريوس مرة أخرى لتوسلات أبيه أن يظل فى نازينز ويخدم فيها كأسقف معاون له، فاستمر فترة فى نازينز يعظ ويرعى الشعب. وألقى عظة سنة ٣٧٢م فى حضور والده حدّث فيها الشعب بكل صراحة عن مشدود بين الحياة التأملية وبين الاستجابة لداعى العمل الرعوى بدعوة الروح القدس. وهكذا وقف مساعدًا أمينًا بجوار والده الوقور الذى كان قد وصل إلى سن المائة وكان له فى الأسقفية ٤٥ عامًا.

وفى سنة ٣٧٤م انتقل والده فألقى عظة مؤثرة جدًا فى جنازة والده التى حضرها القديس باسيليوس (Orat. XVIII). قال فيها موجهًا الحديث لوالدته التى كانت ما تزال تعيش: " هناك حياة واحدة فقط هى أن نرى الله، ويوجد موت واحد فقط . الخطية؛ لأن هذه هى هلاك النفس. وكل ما هو غير ذلك الذى

لأجله يجهد الكثيرون أنفسهم، هو حلم يحجب عنا الحق، إنه وهم خادع للنفس. فحينما نفكر هكذا، يا أمى، فلن نفتخر بالحياة ولن نخاف الموت" وفى نفس السنة انتقلت أمه.

وبعد أن ظل حوالى سنة يرعى كنيسة نازينز، اعتزل مرة أخرى فى خلوته المحببة سنة ٣٧٥م حيث ذهب إلى "سلوكية" فى "إشوريا" وقضى هناك حوالى أربع سنوات بالقرب من كنيسة القديسة "تِكلا". وبينما هو هناك فى خلوته وصله خبر وفاة القديس باسيليوس سنة ٣٧٩م فأرسل رسالة إلى غريغوريوس أسقف نيصصا شقيق القديس باسيليوس يعبّر فيها عن حزنه الشديد وفقدانه وخسارته العظيمة بانتقال باسيليوس.

غريغوريوس رئيس أساقفة القسطنطينية:

فى عام ٣٧٩م دُعى القديس غريغوريوس ليذهب لإنقاذ كنيسة القسطنطينية من الحالة المزرية التى وصلت إليها طوال أربعين عامًا تحت رئاسة أساقفة آريوسيين. لذلك لجأ إليه أرثوذكس العاصمة المتبقين لكى يأتى لمساعدتهم بعد أن صاروا عددًا قليلاً وأيدهم فى إلحاحهم عدد من الأساقفة الأرثوذكس يحثونه على قبول الدعوة. وأيدهم الإمبراطور ثيؤدوسيوس الكبير وبعد أن قاوم الدعوة لمدة من الوقت فإنه أخيرًا شعر أن إرادة الله أن يذهب إلى القسطنطينية لكى يملأ الفراغ الإيمانى إلى أن يتمكن أرثوذكس العاصمة من اختيار رئيس أساقفة لهم. ورغم أن المرض كان قد أحناه، وثيابه البسيطة وببساطة حياته كناسك إلاّ أنه لم يعجب شعب العاصمة المحبون للمظاهر، بل أن البعض هزءوا به واحتقروه. ولكنه رغم كل هذا نجح بقوة وعظه ومقدرته اللاهوتية وجهاده المخلص هناك أن يجعل من القطيع الصغير المتبقى هناك كنيسة مزدهرة وقوية فى الإيمان والحياة المسيحية، وحقق انتصار إيمان نيقية مرة أخرى. ولكى يخلد ذكرى نصرة الإيمان هذه فإنه أعطى للكنيسة الصغيرة . التى كانت جزءً من

منزل أحد أقربائه فى المدينة . اسم "أناستاسيا" التى تعنى القيامة، وفيها قدم عظاته مع خدماته الليتورجية للشعب. وتجمعت حوله كل جماهير القسطنطينية لتسمع عظاته التى تركزت معظمها حول ألوهية المسيح وعقيدة الثالوث القدوس مع الدعوة إلى حياة تقوية تليق بالإيمان المستقيم. وبسبب نجاحه الباهر فى الانتصار على البدعة الآريوسية فى المدينة حاول الآريوسيون أن يستأجروا قاتلاً لاغتياله. وهذا دليل ساطع على انتصاره عليهم فى ضمائر شعب المدينة. ويخبرنا القديس جيروم أنه جاء من سوريا إلى القسطنطينية ليستمع إلى خطب غريغوريوس اللاهوتية. وأنه تعلّم شخصيًا من غريغوريوس فى تفسيره للكتاب المقدس. وقد توّج الإمبراطور ثيؤدوسيوس انتصار إيمان نيقية الذى حققه غريغوريوس فى نفوس الشعب حينما دخل القسطنطينية فى عام ٣٨٠م، وأسقط الأسقف الآريوسى ديموفيلوس وكهنته وسلّم "كاتدرائية الرسل" للقديس غريغوريوس قائلاً: "تسلّم هيكل الله هذا لك بأيدينا كمكافأة لأتعابك". وعندئذٍ طلب الشعب أن يصير غريغوريوس رئيسًا لأساقفة القسطنطينية، فرفض بإصرار. وعندما اجتمع المجمع المسكونى فى القسطنطينية سنة ٣٨١م أُختير غريغوريوس من آباء المجمع بطريركًا. ورأس اجتماع المجمع لفترة كبطريرك للقسطنطينية. ولكن حينما اعترض أساقفة مصر ومقدونية الذين وصلوا متأخرين على قانونية انتخابه لأنه أسقفًا لـ"سازيما" فلايجوز نقله إلى أسقفية أخرى بحسب قرارات مجمع نيقية. فإنه قَبِل هذا الاعتراض رغم ان مجمع القسطنطينية كان بقراره قد ألغى ارتباطه بسازميا التى لم يستلمها أصلاً، ولكنه كان زاهدًا فى المناصب.

سنواته الأخيرة:

رجع إلى نازينز واستمر يقوم بأعمال الكنيسة هناك لفترة إلى أن تمكن من ترتيب اختيار أسقفًا للمدينة، ثم اعتزل هو فى ضيعة أسرته فى أريانز حيث

قضى السنوات الأخيرة من حياته فى خلوة وهدوء دون أن يقطع اتصالاته مع قادة الكنيسة فى ذلك الوقت بواسطة الرسائل فكان يهتم اهتمامًا شديدًا برعاية الفقراء والأسر التى فى منطقة إقامته، صارفًا وقته بين الصلاة والتأمل وقراءة الكتب المقدسة إلى أن انطلق لرؤية الإله الذى كان يهيم بحبه سنة ٣٩٠م. وتعيد له الكنيسة يوم ٢٥ يناير.

(مراجع السيرة : N.P.N. Fathers, Vol. 7, p. 187-200

.(Philip Schaff, History of The Church, Vol. 3, p908-920

فليبارك المسيح إلهنا هذا الكتيب لبنيان كنيسته بشفاعة والدة الإله وصلوات الرسل والشهداء والقديسين والقديس غريغوريوس، وصلوات قداسة البابا شنودة الثالث، والمجد والسجود للآب والابن والروح القدس.

٩ ديسمبر ٢٠٠٣م **المركز الأرثوذكسى**

٢٩ هاتور ١٧٢٠ش **للدراسات الآبائية بالقاهرة**

شهادة البابا بطرس خاتم الشهداء

المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية
بالقاهرة
نصوص آبائية ـ ٧٠

ثيوفانيا

ميلاد المسيح

للقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات

ترجمها عن اليونانية
الباحث جورج
عوض
مراجعة

د. نصحى عبد الشهيد

اسم الكتاب : **ثيوفانيا ميلاد المسيح**

اسم المؤلف : **القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات**

اسم المترجم : **الباحث جورج عوض إبراهيم**

اسم الناشر : مؤسسة القديس أنطونيوس . المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية بالقاهرة : ٨ (ب) ش إسماعيل الفلكى محطة المحكمة مصر الجديدة ت: ٢٤١٤٠٢٣

E-mail: santonio@link.net

اسم المطبعة : دار يوسف كمال للطباعة

٢ش المدارس حدائق القبة ٤٨٢٧٠٧٤ – ٤٨٦٥٣٧٨

رقم الإيداع : ١٥٧١ لسنة ٢٠٠١

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

**

**

المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية بالقاهرة

الثيوفانيا
ميلاد المسيح

تسبحة الميلاد

١ . وُلد المسيح فمجدوه،
أتى المسيح من السموات فاستقبلوه،
أتى المسيح إلى الأرض فعظموه
" *سبحى الرب يا كل الأرض*" (مز ٩٦:١).
وأقول للاثنين
لتفرح السموات وتبتهج الأرض
بالسماوى الذي صار على الأرض.
المسيح تجسد ابتهجوا بفرح وخوف.
الخوف بسبب الخطية، والفرح بسبب الرجاء.
جاء المسيح من عذراء،
فعشن عذارى لكى تصرن يا نساء أمهات للمسيح.
مَنْ الذي لا يسجد للذي كان منذ البدء؟
مَنْ الذي لا يمجد ذاك الذي هو الآخِر؟.

٢ . مرة أخرى ينقشع الظلام[١]،
مرة أخرى يُشرق النور.

[١] الظلمة تنقشع بولادة الرب مثلما حدث أثناء خلق العالم بخلق النور الذي جعل الظلمة التي كانت تغطى الأرض تنقشع (انظر تك ١:٢ وفيما بعده).

مرة أخرى يحل الظلمة كعقاب على مصر[٢]،
مرة أخرى يستتير شعب الله بعمود من نار(انظر خر١٣:٢١).
الشعب الجالس في الظلمة أبصر نورًا (إش٩:٢) ،
فَهِمَ الأسرار الإلهية ،

" *الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل صار جديدًا*" (٢كو٥:١٧).
الحرف يتراجع، والروح يتقدم.
الظلال تهرب بينما الحق[٣] يحل مكانها.
مثال ملكى صادق قد تحقق (مز١١٠:٤)،
الذي كان بلا أم الآن صار بلا أب.
النواميس الطبيعية انحلت.
العالم السماوى ينبغى أن يكتمل[٤].
المسيح يأمر أن لا نضع أنفسنا ضده
" *هيا صفقوا بأيديكم يا كل الأمم* " (مز٤٧:١) ،

لأنه وُلد لنا ولد وأُعطى لنا ابنًا، تكون الرئاسة على كتفه (لأن كتفه رُفع بالصليب)،
ويُدعى اسمه ملاك المشورة العظيم (انظر إش٩:٥س).
دعوا يوحنا يصرخ "*أعدوا طريق الرب* " (مت٣:٣)،
وأنا سوف أتحدث عن قوة هذا اليوم:

[٢] انظر خر١٠:٢١. يقصد بمصر العالم الذي يعيش في ظلمة.
[٣] يشير كل من "الحرف" و "الظلال" إلى "الناموس" الموسوى، بينما كل من "الروح" و "الحق" إلى الحياة الجديدة التي ظهرت في العالم بميلاد المخلّص.
[٤] العالم السماوى يكتمل بعودة الجنس البشرى إلى الموطن السماوى.

الذي بلا جسد تجسد
الكلمة صار له جسم
غير المنظور صار منظورًا
غير الملموس صار ملموسًا
غير الزمنى صارت له بداية زمنية
ابن الله يصير ابن الإنسان

" *يسوع المسيح هو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد* "
اليهود يعثرون، واليونانيون يسخرون، والهراطقة يثرثرون.
سوف يؤمنون به عندما يرونه صاعدًا إلى السماء،
وإن لم يؤمنوا وقتذاك،
فعلى أى حال سوف يرونه آتيًا من السموات وجالسًا كديان.
هذه الأمور سوف تحدث فيما بعد.

اسمان للاحتفال: ثيوفانيا والميلاد:

٣ . أما اليوم، فالإحتفال هو بالظهور الإلهى أى الميلاد. هذا الإحتفال الواحد يطلق عليه اسمان لأن الله ظهر للبشر بواسطة الميلاد. **الكلمة** هو كائن أبدى من الكائن الأبدى فوق كل عِلة وكلمة (لأنه لا توجد كلمة قبل اللوغوس) صار جسدًا لأجلنا لكى . كما منحنا الوجود . يعطيينا أيضًا الوجود الأفضل الذي سقطنا منه بسبب شرورنا أو بالحرى لكى يعيدنا إليه بتجسده. هكذا أطلق اسم "ثيوفانيا" إشارة إلى هذا الظهور، وكذلك أيضًا أُطلق اسم الميلاد إشارة إلى مولده.

لماذا نحتفل بهذا العيد؟:

٤ . بالنسبة لنا هذا هو مفهوم الاحتفال، وهذا هو ما نحتفل به اليوم: نُعيد لمجئ الله إلى البشر لكى نذهب نحن لنسكن بجوار الله، أو بالحرى لنرجع إليه، لكى بخلعنا الإنسان العتيق، نلبس الإنسان الجديد. وكما متنا في آدم، هكذا يمكننا أن نحيا في المسيح، إذ نولد معه، ونُصلب معه ونُدفن معه لكى نقوم بقيامته. لأنه ينبغى أن نتغير التغيير الحسن الصالح. فكما أن الأمور الحسنة (الحالة الفردوسية الأولى) تبعتها الأمور التعسة (حالة السقوط)، هكذا ينبغى بالأحرى أن تأتى الأمور الحسنة من الأمور التعيسة. " لأنه حيثما تكثر الخطية تزداد النعمة جدًا " (رو٥:٢٠).

وإذا كان تذوق الأكل[٥] قد جلب الإدانة فكم بالأكثر تبررنا آلام المسيح. إذن فلنُعيد، ليس بطريقة الإحتفالات الوثنية الصاخبة، لكن بطريقة إلهية، ليس بطريقة العالم لكن بطريقة روحية. لا باعتباره عيدنا نحن بل باعتباره عيد ذاك الذي هو لنا (أى المسيح) أو بالأحرى عيد ربنا. نعيد ليس بما للمرض بل بما للشفاء. نُعيد ليس بما يخص الخلق، بل بما يخص إعادة الخلق.

كيف نحتفل بالعيد؟:

٥ . وكيف يصير هذا التعييد؟ لا بأن نزين الأبواب، ولا نقيم حفلات رقص، ولا نزين الشوارع ولا نبهج عيوننا، ولا نُطرب أسماعنا بموسيقى صاخبة، ولا نلذذ أنوفنا بروائح أنثوية غير لائقة، دعونا لا نفسد حاسة التذوق، ولا نسمح لحاسة اللمس أن تتلذذ بلمس أشياء غير لائقة. هذه

[٥] يشير هنا القديس غريغوريوس إلى "الأكل من الثمرة المحرمة " الذي تسبب في سقوط الآباء الأولين (تك

الحواس التي يمكن أن تكون مداخل سهلة للخطية؛ لنكن غير متخنثين بلبس الملابس الناعمة والكثيرة الثمن، والتي يكمن جمالها في عدم نفعها. ولا نتزين بأحجار ثمينة وبذهب لامع، وبأصباغ تشوه الجمال الطبيعى الذي على صورة الله، ولا للهزء والسكر الذي يصاحبه دائمًا الفسق والدعارة (انظر رو١٣:١٣)، لأن التعاليم الشريرة تأتى من المعلّمين الأشرار، أو بكلام أفضل، لأن البذرة الشريرة تنبت نباتًا شريرًا، فلا نفترش الفرش الناعم الذي يرضى الذات والبطن والشهوات العابرة. ولا نُقبِل على شرب الخمور الممزوجة برائحة الزهور، ولا على الطعام الشهى الذي يتفنن الطهاه في طهيه. ولا نُدهن بطيب غالى الثمن. لا ندع الأرض والبحر يقدمان نفاياتهما الثمينة كهدية، لأنى أسمى الرفاهية نفاية؛ دعونا لا نناقش أحدنا الآخر في إرتكاب المعاصى، (فكل شئ زائد عن الحاجة الضرورية هو إفراط). بينما يوجد آخرون . من نفس طينتنا وطبيعتنا . يتضورون جوعًا، وهم في غاية العوز.

٦ . فلنترك كل هذه الأمور للوثنيين ولإحتفالات الوثنيين، الذين تسر آلهتهم برائحة شواء الذبائح، ويقدمون لها العبادة بالطعام والشراب، فهم مخترعون للشر، وكهنة وخدام للشياطين. أما نحن الذين نقدم عبادتنا "للكلمة"، إن كان يجب أن نستمتع بشئ، فلنستمتع بالكلمة، بالناموس الإلهى وبالشواهد الكتابية خاصةً تلك التي تحدثنا عن موضوعات مثل موضوع إحتفال اليوم، حتى تكون متعتنا قريبة من ذاك الذي جمعنا معًا للإحتفال به (إلى المسيح) وليست بعيدة عنه. هل تريدون (لأنى أنا اليوم سوف أقدم لكم المائدة يا ضيوفى) أن أضع أمامكم رواية هذه الأحداث (الميلادية) بأكثر غزارة وأجمل كلام أستطيعه لكى تعرفوا

كيف يستطيع شخص غريب[٦] أن يُغذى مواطنى البلد، وساكن الريف أن يغذى سكان المدينة، والذي لا يهتم بالمتع أن يُغذى أولئك الذين يسرون بالمتعة، ومَن هو فقير وليس له بيت ولا يملك أى شئ أن يغذى أولئك المشهورون بسبب غناهم.

افتتاحية تعليمية عن الله (الثيولوجيا):

سوف أبدأ بالآتى: نقوا عقولكم وآذانكم وأفكاركم أنتم الذين تبتهجون لهذه الأشياء، لأن حديثنا سيكون حديثًا مقدسًا عن الله؛ حتى حينما تغادرون المكان تكونون قد استمتعتم حقًا بسماع تلك الأمور المبهجة التي لن تنتهى ولا تخبو.

سوف يكون الحديث ملىء تمامًا وفي نفس الوقت سيكون موجزًا، حتى لا تتضايقوا بسبب غياب بعض الحقائق، كما أنه لن يكون مملاً بسبب الإطالة الزائدة.

٧ . الله كان كائنًا دائمًا وهو كائن في الحاضر وسيكون دائمًا إلى الأبد، أو بالحرى، هو كائن دائمًا. لأن "كان" و "سيكون" هى أجزاء من الزمن ومن طبيعتنا المتغيرة. أما هو فهو "كائن" أبدى، وهذا هو الاسم الذي أعطاه لنفسه عندما ظهر لموسى " أنا هو الكائن " (خر٣:١٤). لأنه يجمع ويحوى كل "الوجود"، وهو بلا بداية في الماضى، وبلا نهاية في المستقبل؛ مثل بحر وجود عظيم، لا يُحد ولا يحوى، متعالى كلية

[٦] يشير هنا إلى أنه غريب وليس من أهل القسطنطينية، وهو يلقى خطابه بعد وصوله إليها بفترة قصيرة بعد أن كان يعيش في كبادوكية البعيدة عن القسطنطينية ويخدم في مواضع صغيرة وغير مشهورة مثل نازينز التي جاء منها.

أى مفهوم للزمان وللطبيعة، وبالكاد يمكن أن يُدرك فقط بالعقل ولكنه إدراك غامض جدًا وضعيف جدًا، ليس إدراك لجوهره، بل إدراك بما هو حوله[٧]، أى إدراكه من تجميع بعض ظواهر خارجية متنوعة، لتقديم صورة للحقيقة سرعان ما تفلت منا قبل أن نتمكن من الإمساك بها، إذ تختفى قبل أن نُدركها. هذه الصورة تبرق في عقولنا فقط عندما يكون العقل نقيًا كمثل البرق الذي يبرق بسرعة ويختفى. أعتقد أنه يصير هذا الإدراك هكذا لكى ننجذب إلى ما يمكن أن ندركه (لأن غير المدرك تمامًا، يُحبط أى محاولة للإقتراب منه)، ومن جهة أخرى فإن غير المدرك يثير إعجابنا ودهشتنا، وهذه الدهشة تخلق فينا شوقًا أكثر، وهذا الشوق ينقينا ويطهرنا، والتنقية تجعلنا مثل الله. وعندما نصير مثله، فإنى أتجاسر أن أقول كأنه يتحدث إلينا كأقرباء له باتحاده بنا، وذلك بقدر ما يعرف هو الذين هم معروفين عنده. إن الطبيعة الإلهية لا حد لها ويصعب إدراكها. وكل ما يمكن أن نفهمه عنها هو عدم محدوديتها، وحتى لو ظن الواحد منا أن الله بسبب كونه من طبيعة بسيطة لذلك فهو إما غير ممكن فهمه بالمرة أو أنه يمكن أن يُفهم فهمًا كاملاً. ودعنا نسأل أيضًا، ما هو المقصود بعبارة "من طبيعة بسيطة"؟ لأنه أمرًا أكيد أن هذه البساطة لا تمثل طبيعته نفسها، مثلما أن التركيب ليس هو بذاته جوهر الموجودات المركبة.

٨ . يمكن التفكير في اللانهائية من ناحيتين، أى من البداية ومن النهاية (لأن كل ما يتخطى البداية والنهاية ولا يُحصر داخلها فهو

[٧] أى من خلال أفعاله الإلهية.

لانهائى)، فعندما ينظر العقل إلى العمق العلوى، وإذ ليس لديه مكان يقف عليه، ويتكئ على المظاهر الخارجية لكى يكوّن فكرة عن الله، فإنه يدعو اللانهائى الذي لا يُدنى منه باسم غير الزمنى. وعندما ينظر العقل إلى الأعماق السفلى وإلى أعماق المستقبل فإنه يدعو اللانهائى باسم غير المائت وغير الفانى. وعندما يجمع خلاصته من الإتجاهات معًا فإنه يدعو اللانهائى باسم الأبدى لأن الأبدية ليست هى الزمان ولا هى جزء من الزمان لأنها غير قابلة للقياس. فكما أن الزمان بالنسبة لنا هو ما يُقاس بشروق الشمس وغروبها هكذا تكون الأبدية بالنسبة للدائم إلى الأبد.

نكتفى الآن عن الحديث فلسفيًا عن الله، لأن الوقت لا يتسع، إذ أن موضوع حديثنا الآن هو عن تدبير التجسد وليس عن طبيعة الله (ثيؤلوجيا). ولكن عندما أقول الله فأنا أعنى الآب والابن والروح القدس. لأن الألوهية لا تمتد إلى ما يزيد عن الثالوث وإلاّ كان هناك حشد من الآلهة، كما أنها لا تحد بنطاق أصغر من الثالوث حتى لا نتهم بأن مفهومنا عن الألوهية فقير جدًا وهزيل، وحتى لا ينسب إلينا أننا نتهود بالحفاظ على الوحدانية، أو أننا نسقط في الوثنية بتعدد الآلهة. إذ أن نفس الشر موجود في الاثنين اليهودية أو الوثنية، حتى إن كان موجودًا في إتجاهين متعارضين. هذا إذًا هو "قدس الأقداس"[٨] المخفى عن السيرافيم وهو الذي يُسبّح بنشيد الثلاث تقديسات، والثلاث يُنسب إليها

[٨] قدس الأقداس هنا يعنى الثالوث القدوس.

لقب واحد هو الرب والإله، كما تحدث عن ذلك أحد سابقينا[٩] بطريقة جميلة وسامية جدًا.

خلق العالم العقلى:

٩ . ولكن حيث إن حركة التأمل الذاتى لا تستطيع وحدها أن تشبع "الصلاح"[١٠]، بل كان يجب أن يُسكب الصلاح وينتشر خارج ذاته، لكى يكثر الذين ينالون من إحسانه (لأن هذا كان أساسيًا للصلاح الأسمى)، لذلك فإن الله فكر أولاً في خلقة الملائكة والقوات السمائية. وفكرة هذا صار عملاً تحقق بواسطة كلمته وتكمل بواسطة روحه. وكذلك أيضًا خُلقت المخلوقات النورانية الثانية، كخُدام للنور الأول، الذين ندركهم كأرواح عقلية أو كنار غير مادية وغير فانية، أو كطبيعة أخرى تقترب بقدر الإمكان من كل الوصف السابق. وأريد أن أقول، إنهم لم يكن في إستطاعتهم أن يتحركوا نحو الشر، بل كانوا يستطيعون أن يتحركوا فقط نحو الخير لأنهم موجودون بالقرب من الله ويحصلون على الإنارة بالإشعاعات الأولى من الله، لأن الأرضيين يحصلون على الإنارة الثانية، لكنى مضطر للتوقف عن إعتبارهم أنهم لم يكن في استطاعتهم بالمرة أن يتحركوا ناحية الشر بل أتكلم عنهم فقط على أنه كان من الصعب أن يتحركوا نحو الشر بسبب ذاك الذي بسبب بهائه سمى

[٩] على الأغلب يشير القديس غريغوريوس إلى القديس أثناسيوس الرسولى الذي انشغل بمهارة فائقة بالتعليم عن الله في كتابه ضد الآريوسيين.

[١٠] يدعو القديس غريغوريوس الله بالصلاح، وكان هذا معتادًا عند الآباء أن يستخدموا صفات الله كأسماء لله.

يوسيفوروس[١١]، ولكنه صار ظلمة ودُعى ظلمة بسبب كبريائه، هو والقوات التي تحت رئاسته، وصاروا خالقين للشر بتمردهم على الله، وأيضًا صاروا محرضين لنا على الشر.

خلق العالم المادى:

١٠ . هكذا خُلق هذا العالم العقلى من فيض صلاح الله، بقدر ما أستطيع أن أتفكر في هذه الأمور وأتناول أمورًا عظيمة بلغتى الفقيرة. وبعد أن وجد خليقته الأولى في حالة حسنة، فكر في إبداع عالم ثانى، عالم مادى ومنظور، وهذا العالم هو منظومة مركّبة بين السماء والأرض وكل ما هو موجود بينهما، وهى خليقة جديرة بالإعجاب حينما ننظر إلى جمال كل شئ فيها، وهو أكثر جدارة بالإعجاب حينما نلاحظ التوافق والإنسجام بين المخلوقات وبعضها، إذ يتوافق الواحد مع الآخر والكل فيما بينهم في نظام جميل لكى يُكوّنوا المنظومة كاملة متكاملة لعالم واحد. وهذا لكى يوضح أنه يستطيع أن يحضر إلى الوجود ليس فقط طبيعة شبيهة به بل وطبيعة مختلفة تمامًا عنه. لأن الكائنات العقلية هى شبيهة بالألوهية، وتُدرك فقط بواسطة العقل؛ أما كل المخلوقات التي تُعرَف بالحواس الجسدية فهى مختلفة تمامًا عن الألوهية، وأكثر هذه المخلوقات ابتعادًا هى تلك التي بلا نفس وعديمة الحركة. لكن قد يقول أحد المندفعين، ما الذي يعنينا من كل هذا؟ وقد يتساءل أحد من المشاركين في الاحتفال من المؤمنين المتحمسين "

[١١] يوسيفوروس يعنى حامل الفجر أى النور. أول إشارة إليه كانت في سفر إشعياء ١٢:١٤، لكن ظل يُدعى شيطان Satana وهى كلمة من الفعل العبرى Satan بمعنى المقاوم.

أُنخس الحصان لكى تصل إلى الهدف "، " حدثنا عن العيد وعن الأمور التي من أجلها إجتمعنا اليوم ". هذا ما سوف أفعله. حالاً، رغم أنى قد ابتدأت بأمور عالية إضطرنى إليها حبى لها بالإضافة إلى ما يحتاجه حديثنا عن العيد.

١١ . إذًا، فالعقل والجسد (المادى) المتميزين الواحد عن الآخر، يظلان كل واحد ضمن حدود طبيعته، ويحملان في ذاتهما عظمة الكلمة الخالق، وهما مسبحان صامتان وشاهدان مثيران جدًا لعمله الكلى القدرة. لم يكن بعد يوجد كائن مكون من الاثنين (العقل والحس) معًا، ولا أى إتحاد من هذه الطبائع المتضادة، إنه مثال أسمى للحكمة والتنوع في خلق الطبائع، ولم يكن معروفًا بعد كل غنى الصلاح. ولأن الكلمة الخالق قرر أن يظهر غنى هذا الصلاح، ويخلق كائنًا حيًا واحدًا مكونًا من الاثنين معًا، . أى من الطبيعتين المنظورة وغير المنظورة . لذلك خلق الإنسان. ولقد خلق الجسد من المادة التي كانت موجودة، الجسد وبعد ذلك وضع فيه نفخة منه التي عُرفت بأنها نفس عاقلة وصورة لله، ثم أقامه على الأرض كعالم ثانٍ عظيم في صغره؛ ملاك آخر، عابد مركبً[١٢]. له معرفة كاملة بأعماق الخليقة المنظورة، أما الخليقة غير المنظورة فيعرفها جزئيًا فقط؛ ملك على الموجودات التي على الأرض ولكنه تحت سلطان الملك الذي في الأعالى، أرضى وسماوى، زمنى ومع ذلك غير مائت، منظور ولكنه عقلى، في وضع متوسط بين الوضاعة والعظمة، هو نفسه روح وجسد في شخص واحد. روح بسبب النعمة التي وُهبت له، وجسد لكى يسمو الإنسان بواسطته.

[١٢] أى من المادة والروح.

الواحد لكى يحيا ويمجد الله المحسن إليه، والآخر لكى يتألم وبالألم يتذكر ويتم إصلاحه إذا تكبر بسبب عظمته. كائن حى يتدرب على الأرض لكى ينتقل إلى عالم آخر، وكأن غاية السر هو أن يصير إلهًا[١٣] بميله إلى الله. فإنى أرى أن نور الحق الذي ننناله هنا ولكن بقدر معين يتجه بنا لكى نرى ونختبر بهاء الله. الذي هو بهاء ذاك الذي كوننا[١٤]، والذي سوف يحلنا ثم يعيد تكويننا بطريقة أكثر مجدًا[١٥].

الحالة الفردوسية للإنسان:

١٢ . هذا الكائن (أى الإنسان) وضعه الخالق في الفردوس (أيًا كان هذا الفردوس)، وقد كرمه بهبة حرية الإرادة، لكى يكون تمتعه بالله عن اختيار حر، بفضل عطية الله الذي غرس فيه هذه الحرية، ولكى يفلّح النباتات الخالدة التي تعنى المفاهيم الإلهية، الأكثر بساطة والأكثر كمالاً معًا، عاريًا في بساطته وحياته غير المصطنعة، وبدون أى غطاء أو ستار، لأنه كان من الملائم لذاك الذي في البداية (أى الإنسان الأول) أن يكون هكذا. وأيضًا أعطاه ناموسًا ليظهر به حرية اختياره. هذا الناموس كان وصية من جهة النباتات التي يمكن أن يأكلها، والنبات الذي يجب أن لا يلمسه. هذا النبات الأخير كان شجرة المعرفة، وذلك ليس بسبب أنها كانت شريرة حينما غُرست في البداية،

[١٣] طبعًا لا يقصد القديس غريغوريوس أن الإنسان يصير إلهًا مثل الله: يوجد في كل مكان وقادر على كل شئ، وأبدى ... الخ، لكن يشير هنا إلى اكتساب الفضائل الإلهية.

[١٤] أى من المادة والروح.

[١٥] يشير القديس غريغوريوس إلى الخلق بواسطة إتحاد الجسد والنفس، والموت هو إنحلال هذا الإتحاد ثم يأتى بعد ذلك إعادة هذا الإتحاد في الدهر الآتى بأكثر مجدًا.

ولا حُرمت على الإنسان عن حسدٍ (من ناحية الله، ولا ندع ألسنة أعداء الله تتحدث هكذا، كما لا نقلد الحية!).

السقوط:

وهذه الشجرة كانت يمكن أن تكون صالحة لو أن الإنسان أكل منها في الوقت المناسب (لأن الشجرة، بحسب رؤيتى، كانت هى رؤية الله التي هى مأمونة فقط بالنسبة لأولئك الذين تكملوا بالتمرن والنسك للإقتراب منها بدون مخاطرة)، لكنها ليست صالحة للذين لم يتدربوا بعد وللشرهين من جهة الشهوة، وذلك كالطعام القوى الذي ليس له فائدة للذين مازالوا ضعفاء ويحتاجون إلى اللبن (انظر عب٥:١٢). لكن بسبب حسد إبليس وإغوائه للمرأة التي استسلمت لكونها أكثر ضعفًا، وبدورها حرضت آدم لأنها كانت الأكثر قدرة للتأثير عليه، وأسفاه على ضعفى! (لأن ضعف أبى الأول هو ضعفى)، إذ نسى الوصية التي أُعطيت له، واستسلم للأكل من الثمرة المهلكة، وهكذا طُرد في الحال من الفردوس ومن شجرة الحياة ومن حضرة الله بسبب خطيته، ولبس الأقمصة الجلدية ربما يعنى أنه لبس الجسد الأكثر غلاظة، والقابل للموت والمناقض للأول)[١٦].

وكأول نتيجة، شعرا بالخزى وإختفيا من وجه الله. وهنا حصل الإنسان الأول على ربح له وهو الموت، وقطع الخطية، حتى لا يصير الشر خالدًا، وهكذا فإن العقاب تحول إلى رحمة، لأنى أعتقد أن الله يفرض العقاب بدافع الرحمة[١٧].

[١٦] هنا يشرح القديس غريغوريوس مفهوم الأقمصة الجلدية.

[١٧] هنا نتذكر قول القداس الغريغورى: " حوّلت لى العقوبة خلاصًا ".

تدبير الله للخلاص:

١٣ . وبعد أن عاقب الله الإنسان أولاً . بطرق كثيرة، لأن خطاياه كانت كثيرة (من التي نبتت من جذر الشر، والتي نشأت من أسباب مختلفة وفي أزمنة متفرقة)، أدبه بالقول، والناموس، والأنبياء، والإحسانات، والتهديدت، والفيضانات والنيران، والحروب، والإنتصارات، والهزائم، والعلامات في السماء، وعلامات في الهواء وفي الأرض وفي البحر، وبتغييرات مفاجئة للرجال والمدن والشعوب . كل هذه الأمور كانت تهدف لإبادة الشر . وأخيرًا إحتاج الإنسان لدواء أكثر قوة لأن أمراضه كانت تزداد سوءً: مثل قتل الأخ والزنى والقسم الكاذب، والجرائم الشاذة، وأول وآخر كل الشرور أى عبادة الأصنام وتحويل العبادة إلى المخلوقات بدلاً من الخالق (انظر رو١:١٨.٣٢). وبما أن هذه كانت تحتاج إلى معونة أكبر، لذلك حصلت على مَن هو أعظم. ذلك هو كلمة الله ذاته . الأبدى الذي هو قبل كل الدهور، وهو غير المنظور، غير المفحوص وغير الجسدى، البدء الذي من البدء، النور الذي من النور، مصدر الحياة والخلود، صورة الجمال الأصلى الأول، الختم الذي لا يزول، الصورة التي لا تتغير، كلمة الآب وإعلانه[١٨]، هذا أتى إلى صورته[١٩]، وأخذ جسدًا لأجل جسدنا، ووحد ذاته بنفس عاقلة لأجل نفسى لكى يطّهر الشبه بواسطة شبهه، وصار إنسانًا مثلنا في كل شئ

[١٨] انظر القداس الغريغورى الذي يخاطب المسيح الكلمة بقوله " الذي لا ينطق به، غير المرئى، غير المحوى، غير المبتدئ، الأبدى، غير الزمنى، الذي لا يحد، غير المفحوص، غير المستحيل (أى غير المتغير). وهذا يوضح أن القداس هو من وضع القديس غريغوريوس نفسه الذي تفوه بهذه العظة وغيرها من الخطب والعظات المعروفة باسمه.

[١٩] أى إلى الإنسان الذي خلق على صورته.

ماعدا الخطية إذ وُلد من العذراء التي طُهّرت أولاً نفسًا وجسدًا، بالروح القدس (لأنه كان يجب أن تُكرم ولادة البنين وأيضًا أن تنال العذراوية كرامة أعظم)، وهكذا ظلّ إلهًا من بعد اتخاذه للطبيعة البشرية، شخص واحد بطبيعتين، أى الجسد والروح ألّه الجسد. ياله من اختلاط جديد، الكائن بذاته يأتى إلى الوجود، غير المخلوق يُخلق[٢٠]، غير المحوى يُحوى بواسطة نفس عاقلة تتوسط بين الألوهة والجسد المادى. ذاك الذي يمنح الغنى يصير فقيرًا، لأنه أخذ على نفسه فقر جسدى، لكى آخذ غنى ألوهيته. ذاك الذي هو ملئ يخلى نفسه، لأنه أخلى نفسه من مجده لفترة قصيرة، ليكون لى نصيب في ملئه. أى صلاح هذا؟! وأى سر يحيط بى؟! إشتركت في الصورة؛ ولم أصنها فإشترك في جسدى لكى يخلّص الصورة ولكى يجعل الجسد عديم الموت. هو يدخل في شركة ثانية معى أعجب كثيرًا من الأولى، وبقدر ما أعطى حينئذ الطبيعة الأفضل، فهو الآن يشترك في الأسوأ[٢١]. هذا العمل الأخير (التجسد) يليق بالله أكثر من الأول (الخلق)، وهو سامى جدًا في نظر الفاهمين.

١٤ . ما الذي سوف يقوله المعترضون والمجدفون على الألوهية، أولئك المشتكون ضد كل الأمور الجديرة بالمديح، أولئك الذين يجعلون النور مظلمًا، والذين لم يتهذبوا بالحكمة، أولئك الذين مات المسيح لأجلهم باطلاً، أولئك المخلوقات غير الشاكرة الذين هم من صنع

[٢٠] بناسوت خلقه هو فى أحشاء العذراء.

[٢١] أعطى الله في الخلق نعمة الخلق "على صورة الله" بينما في التجسد يأخذ الجسد: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

الشرير؟ هل تحوّل هذا الإحسان إلى شكوى ضد الله؟ هل تنظر إليه على أنه صغير بسبب أنه اتضع لأجلك؟ وهل تعتبره صغيرًا لأنه هو الراعى الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف (يو١٠: ١١)، والذي أتى ليطلب الخروف الذي ضلّ فوق التلال والجبال والتي كانت تقدم فيها ذبائح لآلهة غريبة، وعندما وجده، حمله على منكبيه . اللتين حمل عليهما خشبة الصليب، وأعاده إلى الحياة الأسمى، وعندما أعاده حسبه مع أولئك الذين لم يضلوا أبدًا؟ هل تحتقره لأنه أضاء سراجًا الذي هو جسده، وكنس البيت، مطهرًا العالم من الخطية، وفتش عن الدرهم، أى الصورة الملكية التي دُفنت وغطتها الشهوات. وجمّع الملائكة أصدقاءه؛ عندما وجد الدرهم جعلهم شركاء في فرحه والذين جعلهم أيضًا مشاركين في سر التجسد؟ فبعد سراج السابق الذي أعّد الطريق، يأتى النور الذي يفوقه في البريق، وبعد "الصوت" أتى "الكلمة" وبعد صديق العريس جاء العريس، صديق العريس الذي أعد الطريق للرب شعبًا مختارًا، مطهرًا إياهم بالماء ليجهزهم للروح القدس؟ هل تلوم الله على كل هذا؟ هل على هذا الأساس تعتبره وضيعًا لأنه شد الحزام على وسطه وغسل أرجل تلاميذه (يو١٣: ٤)، وأظهر أن التواضع هو أفضل طريق للرفعة؟ لقد اتضع لأجل النفس التي إنحنت إلى الحضيض لكى يرفعها معه، تلك النفس التي كانت تترنح لتسقط تحت ثقل الخطية؟ كيف لا تتهمه أيضًا بجرم الأكل مع العشارين وعلى موائد العشارين (انظر لو٥: ٢٧)، وأنه يتخذ تلاميذًا من العشارين، لكى يربح ... وماذا يربح؟ خلاص الخطاة. وإن كان الأمر هكذا، فيجب أن نلوم الطبيب بسبب أنه ينحنى على الجروح ويحتمل الرائحة النتنة لكى يعطى الصحة للمرضى، أو

هل نلوم ذاك الذي من رحمته ينحنى لكى ينقذ حيوانًا سقط في حفرة كما يقول الناموس (انظر تث٢٢:٤٠، لو١٤:٥).

١٥ . المسيح أُرسل، لكنه أُرسل كإنسان لأنه من طبيعة مزدوجة[٢٢]. لأنه شعر بالتعب وجاع وعطش وتألم وبكى حسب طبيعة كائن له جسد. وإذا استعمل تعبير "أُرسل" عنه، فمعناه أن مسرة الآب الصالحة يجب أن تعتبر إرسالية، فهو يرجع كل ما يختص بنفسه إلى هذه الإرسالية، وذلك لكى يكرم المبدأ الأزلى وأيضًا لأنه لا ينبغى أن يُنظر إليه على أنه مضاد لله. فقد كتب عنه أنه سُلم بخيانة وأيضًا سلّم ذاته، وأيضًا كتب عنه أنه أُقيم بواسطة الآب وأنه أُصعد، ومن جهة أخرى أنه أيضًا أقام ذاته وصعد. فما ذكر أولاً في كل عبارة فهو من إرادة الآب (أنه سُلِّم وأنه أُقيم)، أما الجزء الثانى من كل عبارة فيشير إلى قوته هو. فهل تفكر في الأمور الأولى التي تجعله يبدو وضيعًا، أما الثانية التي ترّفعه فأنت تتغافل عنها. وتضع في حسابك أنه تألم، ولا تحسب أن هذا الأم تم بإرادته. انظر فحتى الآن لا يزال الكلمة يتألم. فالبعض يكرمونه كإله ولكن يخلطون بينه وبين الآب، والبعض الآخر يحقرونه كمجرد جسد ويفصلونه عن اللاهوت. فعلى مَن يصب جام[٢٣] غضبه بالأكثر؟ أو بالأحرى مَن هم الذين يغفر لهم؟ هل الذين يخلطونه بطريقة خارجة أم أولئك الذين يقسمونه؟ فالأولون كان يجب أن يميزوا (بين الأقانيم) والآخرون كان يجب أن يوحدوه[٢٤] (مع الآب).

[٢٢] طبعًا من جهة طبيعته التي فيها اللاهوت متحد بالناسوت.

[٢٣] يقصد أصحاب بدعة سابيليوس الذي قال إن الآب هو نفسه صار المسيح وصلب وبعد صعود المسيح جاء باسم الروح القدس أى الثالوث أقنوم واحد وليس ثلاثة أقانيم للاهوت واحد.

[٢٤] يقصد الآريوسيين.

الأولون من جهة عدد الأقانيم والآخرون من جهة الألوهية. هل تتعثر من جسده؟ هذا ما فعله اليهود. ربما تريد أن تدعوه سامريًا؟ ولن أذكر ما قالوه عن المسيح بعد ذلك (انظر يو٨:٤٨) هل تنكر ألوهيته؟ هذا لم يفعله حتى الشياطين. للأسف كم أنت أقل إيمانًا من الشياطين! وأكثر جهلاً من اليهود! فهؤلاء اليهود قد فهموا أن اسم ابن يدل على أنه مساوى في الرتبة (أى مساوى لله)، أما أولئك الشياطين فعرفوا أن الذي طردهم هو إله، لأنهم إقتنعوا بذلك بسبب ما حدث لهم. أما أنت فلا تعترف بالمساواة ولا تقر بلاهوته. كان من الأفضل أن تكون إما يهوديًا أو شيطانًا (لو عبّرت عن ذلك بطريقة مضحكة) عن أن يتسلط على ذهنك الشر والكفر وأنت أغلف وبصحة جيدة.

١٦ . بعد قليل سوف ترى يسوع ينزل ليتطهر في الأردن (مت٣:١٧) لأجل تطهيرى أنا، أو بالحرى ليقدس المياه بطهارته (لأنه لم يكن في إحتياج إلى التطهير ذاك الذي يرفع خطية العالم). وإنشقت السماوات، وشهد له الروح الذي من نفس الطبيعة الواحدة معه؛ وسنراه يُجرب وينتصر على التجارب ويُخدم من الملائكة (انظر مت٤:١١.١)، ويشفى كل مرض وكل ضعف (مت٤:٢٣)، ويمنح الحياة للأموات (وليته يهبك الحياة أنت الذي مت بسبب هرطقتك)، ويطرد الشياطين (مت٩:٣٣) أحيانًا بنفسه وأحيانًا أخرى بواسطة تلاميذه. ويُطعم بخبزات قليلة آلاف من البشر (مت١٤:١٤)، ويمشى على البحر كأرض جافة (مت١٤:٢٥)، ويُسلّم ويُصلب صالبًا خطيتى معه، وقُدم ذبيحة كحمل، وأيضًا قدم ذاته ككاهن يقدم ذبيحة، ودُفن كإنسان وقام ثانية كإله، ثم صعد إلى السموات لكى يعود ثانية في مجده. كم من الأعياد توجد

لأجلى في كل سر من أسرار المسيح! وغاية كل هذه الأسرار تجديدى وتكميلى أنا لكى أرجع إلى حالة آدم الأولى.

١٧ . إذًا، أرجوكم إقبلوا حمله في داخلكم (كما حملته العذراء في بطنها)، وإقفزوا فرحًا أمامه إن لم يكن مثل يوحنا المعمدان وهو في بطن أمه (لو١:١)، فعلى الأقل مثل داود أما تابوت العهد (٢صم٦:١٤). وعليك أن تحترم الإكتتاب الذي بسببه كُتبت أنت في السموات، واسجد للميلاد (لو٢:٥.١) الذي بواسطته فُككت من ولادتك الجسدية، واكرم بيت لحم الصغرى التي أرجعتك مرة أخرى إلى الفردوس، واسجد لطفل المزود الذي به تغذيت باللوجوس (الكلمة) بعدما كنت ضالاً. اعرف قانيك كما يعرف الثور قانيه، والحمار معلف صاحبه، حسب قول إشعياء (١:٣)، ذلك إن كنت من الطاهرين الذين يكرمون الناموس وينشغلون بترديد أقواله باحترار، واللائقين للذبائح. أما إن كنت من أولئك الذين لا يزالون نجسين ولم يكن يحق لهم أن يأكلوا من المقدسات، وغير لائقين لتقديم الذبائح، وهم من الأمم الوثنيين، فإسرع مع النجم وقدم هدايا مع المجوس ذهبًا ولبانًا ومرًا كما لملك وإله ولواحد قد مات لأجلك. مجّده مع الرعاة، وسبحه مع خورس الملائكة، ورتل تسابيحك مع رؤساء الملائكة. فليكن هذا الإحتفال مشتركًا بين القوات السماوية والقوات الأرضية. لأننى أؤمن أن الأجناد السماوية يشتركون في التمجيد معنا، ويحتفلون بالعيد العظيم معنا اليوم، لأنهم يحبون البشر ويحبون الله، كما كتب داود عن أمثال هؤلاء الذين صعدوا مع المسيح بعد آلامه لكى يستقبلوه وهم ينادون أحدهم الآخر ان يرفعوا الأبواب الدهرية (مز٢٤:٧.٩).

١٨ . هناك أمر واحد فقط مرتبط بمناسبة ميلاد المسيح، أريدكم أن تبغضوه، ألا وهو قتل الأطفال على يد هيرودس، أو بالحرى يجب أن تكرموا أيضًا، هؤلاء الذين ذُبحوا وهم من نفس عمر المسيح، هؤلاء صاروا ذبيحة قُدمت قبل الذبيحة الجديدة (أى الصليب). عندما يهرب إلى مصر اهرب أنت معه؛ وترافقه فرحًا في المنفى. إنه عمل عظيم أن تشترك مع المسيح المضطهد. وإن أبطأ كثيرًا في مصر فادعوه من هناك بتقديم عبادة خاشعة له هناك. إتبع المسيح بلا لوم في كل مراحل حياته وكل صفاته. تطهر واختتن؛ إنزع البرقع الذي كان يغطيك منذ ولادتك. بعد ذلك علّم في الهيكل واطرد التجار من هيكل الله، اسمح لهم أن يرجموك لو لزم الأمر، فإنى أعرف جيدًا أنك سوف تفلت من بين هؤلاء الذين يرجموك مثل الله (انظر يو٨:٥٩). لأن الكلمة لا يُرجم. إن جاءوا بك إلى هيرودس لا تعطيه إجابة عن أغلب أسئلته؛ فسوف يحترم صمتك أكثر من احترامه لأحاديث الشعب الكثيرة. إذا جلدوك اطلب منهم أن يتمموا كل الجلدات. ذُق المر واشرب الخل؛ واطلب أن يبصقوا على وجهك؛ اقبل منهم اللطمات والشتائم، وتوج رأسك بإكليل الشوك، أى بأشواك حياة التقوى. إلبس ثوب الأرجوان وامسك القصبة في يدك، واقبل السجود بسخرية من أولئك الذين يسخرون من الحق؛ أخيرًا فلتُصلب مع المسيح واشترك في موته ودفنه بفرح لكى تقوم معه وتتمجد معه وتملك معه، انظر إلى الله العظيم الذي يُسجد له ويمجد في ثالوث، ودعه ينظر إليك وليته يظهر الآن بوضوح أمامك، بقدر ما تسمح قيود الجسد، بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد من الآن وإلى الأبد آمين.

المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية
بالقاهرة
نصوص آبائية ـ ٧٠

ثيوفانيا

ميلاد المسيح

للقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات

ترجمها عن اليونانية
الباحث جورج
عوض
مراجعة

د. نصحى عبد الشهيد

اسم الكتاب : **ثيوفانيا ميلاد المسيح**

اسم المؤلف : **القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات**

اسم المترجم : **الباحث جورج عوض إبراهيم**

اسم الناشر : مؤسسة القديس أنطونيوس . المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية بالقاهرة : ٨ (ب) ش إسماعيل الفلكى محطة المحكمة مصر الجديدة ت: ٢٤١٤٠٢٣

E-mail: santonio@link.net

اسم المطبعة : دار يوسف كمال للطباعة

٢ش المدارس حدائق القبة ٤٨٢٧٠٧٤ – ٤٨٦٥٣٧٨

رقم الإيداع : ١٥٧١ لسنة ٢٠٠١

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

**

**

المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية بالقاهرة

القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات

القديس غريغوريوس هو أحد آباء الكنيسة الكبار، معلمو العقيدة الذين تعتمدهم الكنيسة الأرثوذكسية فى كل العالم كشهود أمناء للإيمان المستقيم الذى أعطاه الرب يسوع للرسل، وكرز به الرسل، وحفظه الآباء بحسب تعبير القديس أثناسيوس الرسولى (انظر الرسالة الأولى إلى سرابيون ٢٨). وتظهر قيمة القديس غريغوريوس فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من أمرين أساسيين على الأقل. الأمر الأول: أن القديس غريغوريوس هو صاحب القداس الغريغورى المعروف باسمه فى الكنيسة القبطية، والذى يجد فى نفوس أتقياء الأقباط محبة خاصة لأنه يُناجى المسيح ابن الله الوحيد مناجاة طويلة فى قداسه تأسر قلوب المُصلين وترتفع بهم إلى مشاركة السمائيين. والأمر الثانى: أن القديس غريغوريوس هو واحد من الآباء القليليين الذين تأخذ الكنيسة فى تحليل الخدام منهم الحِل لكى تتدخل إلى الله فى عبادة القداس الإلهى، مع الرسل القديسين والقديس مارمرقس، ومع آباء المجامع المسكونية الثلاث نيقية والقسطنطينية وأفسس. والقديس غريغوريوس هو الوحيد الذى أطلقت عليه الكنيسة الأرثوذكسية لقب "الناطق بالإلهيات" بعد القديس يوحنا الإنجيلى الرسول، وذلك بسبب عظاته وخطبه اللاهوتية والروحية الشهيرة عن ألوهية المسيح وعن الثالوث القدوس، التى ألقاها فى القسطنطينية فى السنوات القليلة التى قضاها هناك. وهو أحد ثلاثى آباء كبادوكية بآسيا الصغرى مع القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية والقديس غريغوريوس أسقف نيصص. وقد حمل مع القديسين باسيليوس وغريغوريوس المذكورين

أعلاه شعلة إيمان مجمع نيقية ومواصلة الدفاع عنها بعد نياحة القديس أثناسيوس.

نشأته حتى خلوته الرهبانية:

وُلد القديس غريغوريوس حوالى سنة ٣٣٠ فى بلدة نازينز بمقاطعة كبادوكية بآسيا الصغرى التى كان والده غريغوريوس أسقفًا لها. وكانت أمه (نونة) امرأة مسيحية حقيقية من انبل النساء المسيحيات فى القرون الأولى للمسيحية مثلها مثل أم ذهبى الفم وأم أغسطينوس. كان لنونة تأثير قوى جدًا فى نشأة غريغوريوس على الإيمان ومحبة الله ومحبة القداسة. هذه المرأة استطاعت بصلواتها وقداستها أن تحوّل زوجها غريغوريوس الأب من اعتناقه لبدعة الهبيسيستاريا Hypsistaria (التى تجمع خليطًا من أفكار وثنية ويهودية ومسيحية وترفض الإيمان بالثالوث القدوس) إلى الإيمان المستقيم. هذه الأم القديسة كرّست ابنها وهو فى بطنها لخدمة الله. ويقول عنها القديس غريغوريوس ابنها " كانت زوجة بحسب فكر سليمان، خاضعة لزوجها بحسب ناموس الزواج. وفى نفس الوقت كانت معلّمة لزوجها وقائدة له إلى الإيمان الحقيقى... فعندما تنشغل بالله وعبادته، كانت تبدو كانها لا تعرف شيئًا بالمرة عن أى مهام أرضية أو منزلية. وعندما تكون عاملة فى بيتها كانت تبدو كأنها لا تعرف شيئًا عن الممارسات الدينية: كانت كاملة فى كل شئ. لقد غرست الاختبارات فى قلبها ثقة لا حدود لها فى فاعلية الصلاة المؤمنة؛ لذلك كانت مجتهدة للغاية فى الصلوات والتضرعات، وبالصلاة انتصرت على مشاعر الحزن العميقة فى آلامها وآلام الآخرين. وفى كل حزن تعرضت له لم تنطق بأى كلمة حزينة قبل أن تشكر الرب"[1]. وبعد أن عاشت

[1] Philip Schaff, History of the Christian Church, Vol. III, p. 910, 911.

حتى سن متقدمة جدًا تنيحت فى الكنيسة التى كان زوجها أسقفًا عليها فى سوط بكاء الأرامل والأيتام الذين كانت تخدمهم طوال السنين، وقال ابنها القديس غريغوريوس عنها فى أحد أشعاره: " ولولوا أيها الأموات، أيها الجنس المائت؛ ولكن حينما يموت شخص مثل نونة وهى تصلى فأنا لا أبكى"[٢].

ومنذ نعومة أظافره ربته أمه بتعاليم الكتاب المقدس وتسابيح الكنيسة وصلواتها. درس أولاً فى نازينزا، وعندما بدأ يشب قرر بتشجيع أمه وبتأثير حلم رآه أن يكرّس حياته متبتلاً للمسيح، برغم تقديره لفائدة الزواج الذى شرّعه الله. ثم أكمل تعليمه فى قيصرية كبادوكية حيث تعرّف هناك على باسيليوس فى صباهما. ثم ذهب إلى قيصرية فلسطين ومنها إلى الأسكندرية حيث كان القديس أثناسيوس أسقفًا وديديموس الضرير مديرًا لمدرسة الأسكندرية. ولا يبدو أن غريغوريوس التقى بالقديس أثناسيوس هناك ربما لأن القديس أثناسيوس كان حينذاك فى فترة نفيه الثانى (٣٤٠-٣٤٧م) خارج الأسكندرية. لم يمكث غريغوريوس كثيرًا هناك بل سافر بحرًا قاصدًا أثينا ليكمل دراساته. أثناء سفره حاصرت السفينة عاصفة رهيبة وكاد ركابها بما فيهم غريغوريوس يغرقون. ولن غريغوريوس لم يكن قد اعتمد بعد، فقد انزعج بشدة خوفًا من الموت بدون معمودية، وفى صلاة حارة جدد عهد تكريسها ناذرًا نفسه من جديد لخدمة الله إذ أعطاه الله الفرصة للنجاة من الغرق. وقد نسب غريغوريوس نجاته من الغرق لصلوات والديه كما ذكر فى حديثه بمناسبة جنازة والده (Ora. XVIII, 31). وفى أثينا توثقت علاقته بباسيليوس الذى كان يدرس أيضًا هناك. ووصف غريغوريوس عمق المحبة والصداقة التى بينه وبين باسيليوس بقوله كنا روحًا واحدة فى جسدين. ورغم محاولة كثيرين

[٢] المرجع السابق.

إقناعه بالإقامة الدائمة معهم فى أثينا ليعمل مدرسًا للبلاغة، فإنها غادرها وهو فى الثلاثين من عمره تقريبًا ورجع إلى نازينز مستعيدًا أخاه قيصاريوس معه من القسطنطينية إلى نازينز، حيث كان لا يزال والده غريغوريورس أسقفًا. وبعد عودته نال سر المعمودية وله من العمر ثلاثون سنة تقريبًا. وبعد ذلك ألقى غريغوريوس نفسه بكل قواه ليحيا الحياة النُسكية بأشد صرامة، ولكنه فى نفس الوقت استمر يعيش فى نازينز ممارسًا الحياة النُسكية فى المدينة ومساعدصا لوالده فى أعمال الأسقفية.

خلوته الرهبانية:

لم تمهله أشواقه لحياة التأمل والخلوة فترة طويلة فى المدينة فانطلق إلى جبال البنطس حيث قضى فترة فى العبادة والتأمل مع صديقه باسيليوس (أسقف قيصرية فيما بعد). وهناك تفرغ تمامًا لدراسة الكتب المقدسة والصلوات والتسابيح، وفى دراستهما للكتاب المقدس كان المبدأ الأساسى عندهما أن يفسرا الكتب المقدسة ليس حسب آراءهما الشخصية بل على أساس الخطوط التى وضعها الآباء السابقون عليهم فى التفسير. وقرأ كلاهما تفاسير أوريجينوس للكتاب وانتفعا بها مع تحاشى أى أفكار قد تكون غريبة عن المألوف. ومن تفسيرات أوريجينوس للكتاب والاقتباسات التى أخذاها منها وضعا الناسكان الصديقان غريغوريوس وباسيليوس كتابًا مكونًا من سبعة وعشرون جزء أعطوه اسم " فيلوكاليا " Philocalia أى "محبة الصلاح". وهذا الكتاب لا يزال موجودًا إلى الآن بلغات عديدة بالإضافة إلى الأصل اليونانى. وقال عنه القديس غريغوريوس فى إهدائه الكتاب لأحد أصدقائه أن الكتاب قُصد به ليكون عونًا للدارسين فى تأملاتهم الروحية. ويقول سقرط المؤرخ إن اهتمامهما بدراسة أوريجينوس كانت عونًا كبيرًا لهما فى صراعهما

ضد الآريوسية فيما بعد. ذلك لأن الآريوسيين كانوا يقتبسون من أوريجينوس بفهمهم الخاطئ لكى يدعموا هرطقتهم، أما غريغوريوس وباسيليوس فاستطاعا أن يدحضا هذه الأفكار الآريوسية بإظهارهما أنهما لم يجدا فى كتابات أوريجينوس أى كلام فيه دعم لأفكار آريوس (انظر Socrates H. A. IV, XXVI).

ولكن غريغوريوس لم يبق لفترة طويلة فى المرة ألولى التى ذهب فيها للخلوة مع باسيليوس، فبعد حوالى ثلاث سنوات عاد إلى نازينز، ربما بسبب مشاكل فى إيبارشية والده استدعت رجوعه.

رسامته كاهنًا:

بعد عودته وبقاءه لبعض الوقت يعاون والده الأسقف فى خدمة الإيبارشية الذى كان قد بلغ تسعون عامًا من العمر، وبإلحاح من شعب نازينز قام والده الأسقف برساكته كاهنًا رغمًا عنه فى احتفال كبير ربما فى عيد الميلاد فى نهاية عام ٣٦١م. ولم يكن غريغوريوس مستريحًا أو راضيًا بالمرة عن السيام، إذ قال على الطريقة القهرية التى تمت بها، بعد سنوات طويلة، إنها عمل استبدادى وأنه لا يستطيع أن يتكلم عنها بتعبيرات أخرى رغم أنه يطلب من الروح القدس أن يغفر له استعماله لهذه الكلمات (انظر Carm, de vita, I, 345).

وبعد سيامته مباشرة هرب إلى بنطس ليستأنف الحياة التأملية مع صديقه باسيليوس ولكنه لم يبق هناك سوى ثلاثة أشهر تقريبًا عاد بعدها إلى نازينز لشعوره باحتياج والديه المسنين وإلحاحات شعب نازينز. وألفى عظة عيد الفصح فى كنيسة نازينز فى عام ٣٦٢م، وفى هذه العظة دافع عن هروبه قائلاً إنه من النافع أن يخاف الإنسان فى البداية من دعوة الله العظيمة كما

فعل موسى وإرميا، كما أن الهروب المؤقت من الدعوة له فائدة عندما يستجيب الإنسان لصوت الله حينما يدعوه مثلما حدث مع هارون وإشعياء، وفى الحالتين ينبغى ان يكون الهروب أو الموافقة بروح خاشعة، وفى حالة الهروب يكون بسبب الضعف الطبيعى فى الشخص المدعو، وفى الحالة الثانية يكون الخشوع اعتمادًا على قوة الله الذى يدعوه. وانتهز غريغوريوس الفرصة ليكتب رسالة طويلة عن هروبه يوضح فيها باستفاضة فهمه لطبيعة ومسئوليات الخدمة الكهنوتية، وأسباب هروبه بعد السيامة ورجوعه السريع. وهذه الرسالة هى التى حُفظت تحت رقم عظة ٢ وهى بحث كامل فى الكهنوت وقد اعتمد عليه القديس يوحنا ذهبى الفم كأساس لكتبه الستة عن الكهنوت، كما استعان به بابا روما غريغوريوس الكبير (القرن السادس) فى كتابه عن الرعاية، كما استعان به كُتّاب كثيرون فى كافة العصور.

وعندما صار يوليانوس إمبراطورًا سنة ٣٦١، حاول عن طريق حاكم المنطقة أن يرسل فرقة مسلحة للاستيلاء على كنيسة نازينز. ولكن الأسقف المُسن بمساعدة ابنه غريغوريوس وشعب الكنيسة رفضوا بجراءة تنفيذ أوامر الإمبراطور، ولما شعر الوالى بوجود مقاومة شديدة أُضطر لسحب القوة المُسلحة. ولم تتكرر أى محاولة من الدولة بعد ذلك. وكان لموقف غريغوريوس الأب وغريغوريوس الابن فى مقاومة يوليانوس الجاحد دفاعًا عن الإيمان المستقيم دور كبير لتحويل نظر الإمبراطور عن مهاجمة الإيمان وممتلكات الكنيسة فى مقاطعة كبادوكية كلها. ورغم أن الإمبراطور أعلن عن نيته للانتقام من الذين قاوموه فى نازينز وكبادوكية كلها عندما يعود من حملته فى ضد الفرس، إلاّ أن عناية الله تدخلت لأنه لم يعد بل انهزم وقُتل فى حرب الفرس. وبعد أن تولى الإمبراطور فالنس الآريوسى عرش

الإمبراطورية كان يوسابيوس أسقف قيصرية هو رئيس أساقفة كبادوكية؛ فأرسل إلى غريغوريوس يدعوه إلى قيصرية لمساعدته فى مقاومة الآريوسية فاعتذر غريغوريوس لأنه كان يعلم بوجود خلاف بين يوسابيوس وباسيليوس الذى كان قد رسمه كاهنًا قبل ذلك. وكتب غريغوريوس خطابات إلى يوسابيوس وباسيليوس واستطاع أن يصالح بينهما سنة ٣٦٥م، فذهب باسيليوس إلى قيصرية لمساعدة يوسابيوس.

رسامته أسقفًا:

بسبب وجود صراع بين أنثيموس أسقف تايانا الذى اعطاه الإمبراطور فالنس فرصة أن يسيطر على مقاطعة كبادوكية كلها بجعل تايانا مقر رئاسة الأساقفة بدلاً من قيصرية . فلكى يقوّى القديس باسيليوس الذى كان أسقفًا لقيصرية مركزه فى مواجهة الخطة الإمبراطورية قام بإقامة أسقفيات عديدة فى المنطقة المتنازع عليها بينه وبين أنثيموس. ومن بين هذه الأسقفيات "سازيما" قرية فقيرة وصغيرة جدًا وجمع سكانها من الأجانب واللصوص، قام بسيامة صديقه غريغوريوس أسقفًا لها بعد ضغط شديد من باسيليوس ووالد غريغوريوس المُسن. ولكنه لم يذهب لاستلام هذه الإيبارشية تحاشيًا للصدام واستعمال العنف مع الأسقف أنثيموس. وتسبب هذا الموقف مع باسيليوس فى تأزم العلاقات بينهما لدرجة كادت تؤثر على الصداقة العميقة التى كانت تجمعهما.

وذهب غريغوريوس إلى خلوته مفضلاً حياة الهدوء والتأمل. وبعد ذلك استجاب غريغوريوس مرة أخرى لتوسلات أبيه أن يظل فى نازينز ويخدم فيها كأسقف معاون فاستمر عدة فترات فى نازينز يعظ ويرعى الشعب وألقى عظة سنة ٣٧٠ فى حضور والده حدّث فيها الشعب بكل صراحة عن انجذابه

للحياة التأملية، وفى نفس الوقت استجابته لداعى العمل الرعوى بدعوة الروح القدس (Orat. XII). وهكذا وقف مساعدًا أمينًا بجوار والده الوقور المحبوب من الجميع الذى كان قد وصل إلى سن المائة وكان له فى الكهنوت ٤٥ عامًا.

وفى سنة ٣٧٤م انتقل والده فالقى عظة قوية جدًا فى جنازة والده التى حضرها القديس باسيليوس (Orat. XVIII). قال فيها موجهًا الحديث لوالدته التى كانت ما تزال تعيش: " هناك حياة واحدة فقط هى أن نرى الله، ويوجد موت واحد فقط . الخطية؛ لأن هذه هى هلاك النفس. وكل ما هو غير ذلك لأجل هذه يجهد الكثيرون أنفسهم، هو حلم يحجب عنا الحق، إنه وهم خادع للنفس. فحينما نفكر هكذا، يا أمى، فلن نفتخر بالحياة ولن نخاف الموت" وفى نفس السنة انتقلت أمه.

وبعد أن ظل حوالى سنة يرعى كنيسة نازينز ساعيًا لاختيار أسقفًا لها. وإذ وجد أن شعب نازينز متعلقًا به، فإنه اعتزل مرة أخرى فى خلوته المحببة سنة ٣٧٥م حيث ذهب إلى "سلوكية" فى "إشوريا" وقضى هناك حوالى أربع سنوات بالقرب من كنيسة القديسة "تِكلا". وبينما هو هناك فى خلوته وصله خبر وفاة القديس باسيليوس سنة ٣٧٩م فأرسل رسالة إلى غريغوريوس أسقف نيصص شقيق القديس باسيليوس يعبّر فيها عن حزنه الشديد وفقدانه وخسارته العظيمة بانتقال باسيليوس.

خدمته فى القسطنطينية:

فى عام ٣٧٩م دُعى القديس غريغوريوس ليذهب لإنقاذ كنيسة القسطنطينية من الحالة المزرية التى وصلت إليها طوال أربعين عامًا تحت رئاسة أساقفة آريوسيين. وكادت تقريبًا تُسحق بانتشار هدد من الهراطقات

الأخرى مثل اليونومية والمقدونية والأبوليناررية وغيرها. لذلك لجأ إليه أرثوذكس العاصمة المتبقين لكى يأتى لمساعدتهم بعد أن صاروا عددًا قليلاً فى المدينة وأيدهم فى إلحاحهم عدد من الأساقفة الأرثوذكس يحثونه على قبول الدعوة. وأيدهم الإمبراطور ثيؤدوسيوس الجديد بعد فالنس وبعد أن قاوم الدعوة لمدة من الوقت فإنه أخيرًا شعر أن إرادة الله أن يذهب إلى القسطنطينية لكى يملأ الفراغ إلى أن يتمكن أرثوذكس العاصمة من اختيار رئيس أساقفة لهم. ورغم أن المرض كان قد أحناه، وثيابه البسيطة وببساطة حياته كناسك إلاّ أنه لم يعجب شعب العاصمة المحبون للمظاهر، بل أن البعض هزءوا به واحتقروه. ولكنه رغم كل هذا نجح بقوة وعظه ومقدرته اللاهوتية وجهاده المخلص هناك أن يجعل من القطيع الصغير المتبقى هناك كنيسة مزدهرة وقوية فى افيمان والحياة المسيحية وحقق انتصار إيمان نيقية مرة أخرى. ولكى يخلد ذكرى نصرة الإيمان هذه فإنه أعطى للكنيسة الصغيرة جزءً من منزل أحد أقربائه فى المدينة اسم "أناسطاسيا" التى تعنى القيامة، وفيها قدم عظاته مع خدماته الليتورجية للشعب فى هذه الكنيسة الصغيرة. وتجمعت حوله كل جماهير القسطنطينية لتسمع عظاته التى تركزت معظمها حول ألوهية المسيح وعقيدة الثالوث القدوس مع الدعوة إلى حياة تقوية تليق بالإيمان المستقيم. وبسبب نجاحه الباهر فى الانتصار على البدعة الآريوسية فى المدينة حاول الآريوسيون أن يستأجروا قاتلاً لاغتياله وهذا دليل ساطع على انتصاره عليهم فى ضمائر شعب المدينة. ويخبرنا القديس جيروم أنه جاء من سوريا إلى القسطنطينية ليستمع إلى خطب غريغوريوس اللاهوتية. وأنه تعلّم شخصيًا من غريغوريوس فى تفسيره للكتاب المقدس. وقد توّج الإمبراطور ثيؤدوسيوس انتصار إيمان نيقية الذى حققه غريغوريوس فى نفوس الشعب حينما دخل

القسطنطينية فى ٢٤ ديسمبر عام ٣٨٠م وأسقط الأسقف الآريوسى ديموفيلوس وكهنته وسلّم كاتدرائية الرسل للقديس غريغوريوس قائلاً: " نسلّم هيكل الله هذا لك بأيدينا كمكافأة لأتعابك". وعندئذٍ طالب الشعب أن يصير غريغوريوس رئيسًا لأساقفة القسطنطينية، فرفض بإصرار. وعندما اجتمع المجمع المسكونى فى القسطنطينية سنة ٣٨١م أُختير غريغوريوس من آباء المجمع بطريركًا للعاصمة. ورأس اجتماع المجمع لفترة كبطريرك للقسطنطينية. ولكن حينما اعترض أساقفة مصر ومقدونية الذين وصلوا متأخرين على قانونية انتخابه لأنه أسقفًا لـ"سازيما" فلايجوز نقله إلى أسقفية أخرى بحسب قرارات مجمع نيقية. فإنه قَبِل هذا الاعتراض رغم ان مجمع القسطنطينية كان بقراره قد ألغى ارتباطه بسازميا التى لم يستلمها أصلاً، ولكنه كان زاهدًا فى المناصب، لذلك رجع إلى نازينز واستمر يقوم بأعمال الكنيسة هناك لفترة إلى أن تمكن من ترتيب اختيار أسقفًا للمدينة واعتزل هو فى ضيعة أسرته فى أريانز حيث قضى السنوات الأخيرة من حياته فى خلوة وهدوء دون أن يقطع اتصالاته مع قادة الكنيسة فى ذلك الوقت بواسطة الرسائل فكان يهتم اهتمامًا شديدًا برعاية الفقراء والأسر التى فى منطقة إقامته، صارفًا وقته بين الصلاة والتأمل وقراءة الكتب المقدسة إلى أن استودع روحه فى يدى الله سنة ٣٩١م. وتعيد له الكنيسة القبطية يوم....